الفصل الخامس

التماهي مع الثقافة الغربية.. رواية لقيطة إسطنبول نموذجًا (النسوية في العالم الإسلامي)

سنتوقف أولًا عند بعض النقاط المهمة لنفهم خلفيات الرواية وأبعادها في السياق السردي:

- أليف شفق
- صراع الأرمن مع الدولة العثمانية.
- الصوفية والإلحاح عليها.

أولًا- أليف شفق

تمثل الكاتبة التركية أليف شفق نمطًا مغايرًا ومضادًا للرؤية الإسلامية الصافية، وهي تختلف عن الكاتبات العربيات اللاتي ينتسبن إلى حقل الرواية من حيث التجربة والموهبة، إذ تبدو أكثر تحصيلًا معرفيًا، ووعيًا ثقافيًا، وأنضج خبرة وموهبة في مجال السرد وتنويعاته المتميزة، ولكن مشكلتها تكمن في كونها ابنة الثقافة الغربية التي لا تتعاطف مع الإسلام، ولا تتصالح معه إلا من باب الصوفية السلبية التي كانت مجال دراستها وقراءتها المكثفة.

ومثل كثيرات من المفتونات بالثقافة الغربية تماهت مع فكرة النسوية بأبعادها الفكرية والأدبية، ومنحازة إلى الرؤية الغربية تجاه الدولة العثمانية ومسألة الأرمن.

ولدت أليف شفق في ستراسبورغ- فرنسا، عام ١٩٧١ لأبوين من تركيا ، هما الفيلسوف نوري بيلغين، وشفق أتيمان التي أصبحت دبلوماسية فيما بعد، انفصل والداها عندما كان عمرها عامًا واحدًا فربّتها أمها، وتقول الكاتبة إن نشأتها في عائلة لا تحكمها القوانين الذكورية التقليدية(؟) كان له كبير الأثر على كتابتها، وتستخدم الكاتبة اسمها الأول واسم أمها (تطبيقًا للنسوية) اسمًا أدبيًا توقع به أعمالها.

أمضت طفولتها وصباها متنقلة بين مدريد وعمّان وكولونيا قبل أن تعود إلى تركيا، وهاجرت إلى الولايات المتحدة لتواصل دراستها أولًا، ثم بعد ذلك لتشغل منصب أستاذة محاضرة في مادة الدراسات والأجناس في جامعة أريزونا.

تزوجت سنة ٢٠٠٥ من الصحفي التركي أيوب خان وأنجبت منه طفلين، أسمت ابنتها زيلدا على اسم زيلدا فيتزجرالد، وأسمت ابنها على اسم الزاهر، بطل إحدى قصص بورخيس .

وتحمل شفق شهادة البكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة الشرق الأوسط التقنية في تركيا، كما تحمل شهادة الماجستير في "الجندر والدراسات النسوية" والدكتوراه في العلوم السياسية من الجامعة ذاتها، نالت عن أطروحتها لنيل الماجستير، جائزةً من "معهد علماء الاجتماع".

ابن عربي

وتبدو أليف متيمة بفكر محيي الدين بن عربي الصوفي، فتقول: "لقد اعتاد محيي الدين بن عربي أن يقول سأبحث عن دين الحب أينما كان حتى لو كان عند اليهود أو النصارى أو المسلمين، إن الأصوليين يتبعون دين الخوف فتكون سياستهم التخويف، إن الصوفي المسلم يتبع دين الحب تمامًا مثل ما قال ابن عربي: لا يوجد دين أرقي من دين الحب، إن روايتي قواعد العشق الأربعين تعرض نظرة ثاقبة على الفلسفة القديمة القائمة على وحدة جميع الأديان والشعوب".

وهي تشير بكلامها إلى معتقد ابن عربي في أبياته الشهيرة :

قد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

لقد صارَ قلبي قابلًا كلَ صُورةٍ فمرعى لغزلانٍ ودَيرٌ لرُهبَانِ
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآن
أدينُ بدينِ الحبِ أنّى توجّهتْ ركائبُهُ، فالحبُّ ديني وإيمَاني

ومعتَقد ابنَ عربي الذي تشير إليه الأبيات قائم على وحدة الوجود، حيث يرى أن العالم صورة الله الذي هو روح العالم المدبر له فهو الإنسان الأكبر، فشهادته إنسان وغيبه إله، مثل أبي يزيد حين قال "إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون "، وترجمت أليف شفق ذلك بقولها " فالله لا يقبع في السماوات العالية ، بل يقبع في داخل كل منا، لذلك فهو لا يتخلى عنا فكيف له أن يتخلى عن نفسه؟ إن جهنم تقبع هنا الآن وكذلك الجنة " ،و قال جلال الدين الرومي " فما دام الخالق قد قال: "يد الله فوق أيديهم" فقد أعلن أن أيدينا هي يداه ".

المفارقة أن الشيخ يرفض فكرة الحلول والاتحاد، وله مقولة شهيرة معروفة وهي: " " من قال بالحلول فدينه معلول، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد!". (ابن عربي. فصوص الحكم، ص ١١١، وانظر مقدمة إبراهيم الدسوقي شتا مترجم: المثنوي لجلال الدين الرومي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م).

ثم إن ابن عربي لم يصوِّر مذهبه كاملًا في كتابٍ محدَّدٍ ، ولم يطرحه في صورةٍ منهجية، مع أنه وصل إلى مكانة متميزة في المعرفة الإسلامية، فضلًا عن غزارة المصطلحات الغامضة والأفكار المعقدة التي تحكم مؤلفاته وكتبه.

الصوفية الباطنية

ويبدو إن تماهيها مع الصوفية الباطنية جعلها تمضي في تفسيرات بعيدة عن الواقع والمألوف، في دفاعها عن المرأة وخطاياها، فقد ألقت الضوء على جريمة الشرف في روايتها "شرف" وتناولت حرية المرأة وشرف العائلة، قالت أليف شفق: "لا يوجد حب بدون حرية"، وفي رواية "النظرة" تناولت فكرة أن جسد المرأة ملك لها وأنها تبحث عن استقلاليته بعيدًا عن نظرة المجتمع، وكذلك نظرة الله لها، حين حدثت الخطيئة أرادت أن تصل الفتاة إلى السماء لتسأل الله لماذا لم يغمض عينيه حتي لا يراها أثناء حدوث الخطيئة؟ ومن ثم دافعت أليف عن "زليخة" زوجة عزيز مصر حين تحرشت بيوسف – عليه السلام – وتري أن من يهاجم الأديبة كمن يطارد شبح زليخة فقالت "إن الأصوليين الذين يتبعون دين الخوف يتهمون زورًا(؟) زليخة أنها زوجة مدللة أرادت أن تخون زوجها مع النبي يوسف، وأنها اتهمته أنه حاول اغتصابها، فألقي به في السجن، ذلك بسبب فهم الأصوليين لظاهر القرآن فقط، لكن الصوفي يفهم باطن القرآن.. حيث يرى زليخة إنسانة وقعت في الحب لا أكثر من ذلك ولا أقل!".

وهي بهذا الرأي تجعل الحب رديفًا للشهوة، التي أشار إليها القرآن الكريم صراحة: "وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِّ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ. وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ

بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ"(يوسف:٢٣-٢٦).

وفي ظني أن أليف تخضع في تفسيرها للنسوية أكثر مما تخضع للصوفية وتفسيرها الباطني الذي يتناقض مع التشريع الإسلامي الواضح الصريح الذي يجرّم الزنا، ويحفظ الأعراض، ويقنن العلاقة بين الرجل والمرأة بما يضبط حركة المجتمع، ويمنع اختلاط الأنساب.

وقد ذهبت أليف إلى مدى بعيد حين اعترفت في برنامج TED الذي يستضيف المشاهير ليعبروا عن أفكارهم دون خوف من رد فعل الجماهير، بميولها المثلية أو السحاقية بقولها "لم أكن أملك الشجاعة لأُعلن علي المَلأ بأنني مزدوجة الميول الجنسية Bisexual، فقد خشيتُ من السخرية والكراهية التي سَتلِي هذا الإعلان".

الصوفية والجنس

ومن وجهة نظر شفق أن الهجوم على المرأة إذا كتبت عن الجنس قد جعل كثيرًا من الأديبات لا تجرؤ على الكتابة عن الجنس والإثارة الجنسية إلا بعد أن تتقدّم في السن، إلا أن أليف أوضحت بأنها ستكمل من حيث انتهى تراثها وستكتب عن الشهوة الجنسية واشتهاء المماثل وستمزج ذلك برواياتها عن الصوفية!

وتتجاوز النسوية الآن في البلاد الإسلامية حدود الذات الفردية إلى محاولة تغيير التشريع الإسلامي في الأحوال الشخصية والمعاملات، بل العبادات نفسها، ونجد ترويجًا غير عادي لممارسات بعض النساء أو أفكارهن التي تطعن الثوابت والتشريع، فقد كان هناك ضجيج دعائي

وصخب نسوي حول مساواة المرأة بالرجل في الميراث ، ثم انتقلت المسألة إلى الاهتمام بامرأة مسلمة تدعى شيرين خانقان من الدانمرك ألفت كتابًا بعنوان «المرأة ومستقبل الإسلام» نزعت فيه خصوصيتها الإسلامية، حيث تستطيع أن تجد نفسها في الإسلام كما تجد نفسها في كل العقائد والديانات والفلسفات التي عبرت عن حقوق الإنسان وآماله وأحلامه، فقد تتلمذت على محيى الدين بن عربي بالذات.

وهى تنسب نفسها لكل البشر فتقول «أنا الشرق والغرب، القرية والمدينة، المؤمنة والعلمانية». وهى تلخص فهمها للإسلام في كلمتين هما «القلب المتفتح». أما حلمها فتعبر عنه كما يلي: «بيت لله بثلاثة مداخل وساحة واحدة للصلاة تجمع بين أبناء الديانات الثلاث». كما قامت هذه السيدة بإمامة المصلين في أحد مساجد الدانمرك، ولقيت اهتمامًا غير عادي من العلمانيين في مصر، وفي الوقت ذاته خرجت دعوة من مذيعة سعودية تدعى "نادين البدير" تحض على مشاركة المرأة للرجال في صفوف الصلاة، وقالت في تدوينات لها على "تويتر" قبل أن تحذفها: "من التطور الديني أن نقف في الصلاة مع الرجال وأمامهم وليس في مؤخرة الصفوف.. الإسلام دين المساواة". وفي ردها على أحد المغردين حول إن كان هذا رأيها أو رأي أحد علماء الدين، قالت "البدير": "بعد فترة بسيطة سيكون رأي (علماء) الدين"!

حليب أسود

وبصفة عامة تبدو فكرة النسوية الممتزجة بالصوفية مهيمنة على الكاتبة أليف شفق بشكل حاد، وهو ما عبرت عنه بجلاء ووضوح في روايتها "لقيطة إسطنبول"؛ ولكن فكرة النسوية تهبط حدة اشتعالها إلى

حد ما عندما تترجم لحالة الولادة والأمومة بعد أن رزقت بطفل، في كتابها "حليب أسود". إنها ترصد حالة الصراع بين المرأة الكاتبة والمرأة الأم، وتعبر عن حالة اكتئاب أصابتها عقب الولادة، ظلت تعانيها فترة طويلة حتى تغلّبت الأمومة، ولا أدري هل هناك اكتئاب يصيب الوالدات عموما؟ أو إنه أمر خاص بالكاتبة؛ لأن الأمر شغلها عن الكتابة وحليبها الأسود = حبرها الأسود= في مقابل حليب الرضاعة الأبيض؟ فالمعتاد أن الأمومة وخاصة مع الطفل الأول تجعل المرأة في حالة بهجة وسرور؛ لأن الطفل هذا الكائن الجديد يملأ الدنيا فرحًا وسعادة. ولكنه - فيما يبدو- يعطل الأم الكاتبة عن الاستمرار في الكتابة والإنتاج الأدبي ، فضلًا عن أن أليف تعيش بمزاج خاص يصادر الأنوثة لحساب الذكورة وهو المزاج الذي تتبنّاه النسوية ضمنيًا، حيث تحل الأنوثة مكان الذكورة بدعوى المساواة والنّدية دون مراعاة لخصوصية المرأة والرجل.

في «حليب أسود»، تتوارى الأنوثة إلى حد كبير، وتفرض الأمومة نفسها، فالكاتبة تلتقي بأيوب رجل حياتها، فتتزوجه في ألمانيا، بعيدًا عن أي مظاهر احتفالية، ودون الفستان الأبيض الذي تكرهه! وحين تكتشف حملها، تتنافر الأصوات الداخلية وتُحدث فوضى لا تلبث أن تتحول إلى اكتئاب حاد بعد إنجاب طفلتها شهرزاد= زيلدا، ومن ثمّ تنهي كتابها باعتراف دالّ قد تقتدي به كاتبات كثيرات: «إنني في كل ما كتبت وكل ما فعلت، كنت ولا أزال ملهمة الإلهام كله وممتنة عظيم الامتنان لزيلدا (ابنتها) وظاهر (ابنها) ولجماليات الأمومة ومشاقها».

كتب أليف

نشرت أليف عـددًا من الـروايـات بعضها بالتركية والآخر بالإنجليزية، وترجم معظمها إلى لغات أخرى، ومن رواياتها: الصوفي ومرايا المدينة والنظرة العميقة وشرف ولقيطة إسطنبول وقصر الحلوى والفتى المتيّم والمعلم، وحققت أحدث رواياتها "قواعد العشق الأربعون" انتشارًا كبيرًا على مستوى العالم، حيث تقدّم لوحات متعددة لشخصيات من زمنين مختلفين، الأول: من خلال شخصية إيلا اليهودية وعائلتها التي تعيش في ولاية ماساشوستس في الزمن الحاضر، والعام ٢٠٠٨ تحديدًا، والآخر: في القرن الثالث عشر الميلادي حيث يلتقي الدرويش الصوفي "شمس التبريزي" بتوأمه الروحي "جلال الدين الرومي"، وقد اعتمدت الرواية على تعدد الأصوات السردية بحيث يتناوب أبطال الرواية وشخصياتها سرد الأحداث على امتداد خمسة أجزاء (التراب، الماء، الهواء، النار، العدم).

***

ثانيًا- صراع الأرمن مع الدولة العثمانية

من المحاور الأساسية في رواية لقيطة إسطنبول مسألة الأرمن، وعلاقتهم بالدولة العثمانية ودعوى إبادة الأتراك لهم، من خلال رصد ما يجري بين عائلتين الأولى :تركية تعيش في إسطنبول، والأخرى: أرمينية تعيش في الولايات المتحدة، وقد ربطت بينهما قرابة منذ أجيال بعيدة مرتبطة بالإبادة المزعومة، ولا يعلم عنها الأحفاد شيئًا، وقد جاء ذلك في قصة (شوشان) الفتاة الأرمينية التي هاجرت عائلتها من بلدها

أوائل القرن العشرين إلى الولايات المتحدة؛ هربًا من المجازر المدعاة ضد الأتراك، حيث عادت حفيدتها آرمانوش إلى إسطنبول للبحث عن أصولها لتكتشف بالتعاون مع آسيا (لقيطة إسطنبول)، أسرارًا كبيرة عن العائلة وعن تاريخ تركيا الحديث.

تنحاز الرواية إلى الأرمن وتأخذ بوجهة النظر السائدة في الغرب عن الوحشية العثمانية ضدهم، ولا تتوقف عند الحقائق الغائبة في الموضوع التي كشفها بعض مؤرخي الغرب بالوثائق، ولعل هذا الموقف الذي اتخذته الكاتبة ضد قومها الأتراك كان سببًا في مساءلتها قانونيًا، حتى أوشكت أن تدخل السجن.

دراسة منصفة

وقد صدرت بعض الدراسات المنصفة التي تكشف حقائق الغدر الأرميني وجرائم الأرمن ضد العثمانيين، ولكن خطاب الكراهية التي تنتجه السياسة الغربية يطغي على الأصوات المنصفة، التي تتحدث عن خيانة أرمينية تسببت في مذابح رهيبة للأتراك الذين احتضنوا الأرمن طويلًا وأحسنوا إليهم وأدمجوهم في الحياة العامة فتولوا الوظائف العليا، واستثمروا وجودهم في الدولة العثمانية للغنى والثراء، وعاشوا يستمتعون في إسطنبول وغيرها مع بقية الأعراق والفئات غير التركية الإسلامية بأكثر مما يستمتع به بعض الأتراك أنفسهم.

هناك دراسة طويلة بعنوان: الطرد والإبادة مصير المسلمين العثمانيين ١٨٢١-١٩٢٢م، أعدّها باحث أميركي اسمه جستن مكارثي، ونشرتها جمعية أتراك السعودية ، تلقي مزيدًا من الضوء على الظلم التاريخي الذي لحق بالأتراك المسلمين لحساب الأرمن.

في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر دعم الرسميون الأرمن العلمانيون والمؤمنون الغزو الروسي لمناطق المسلمين في القفقاس والإطاحة بحكامها المسلمين، في الوقت ذاته عمل الأرمن جواسيس للروس ضد حكامهم المسلمين، فعلى سبيل المثال كانت المدينة العثمانية دربند تحت الحصار الروسي عام ١٧٩٦م، فأرسل سكانها الأرمن إلى الغزاة الروس معلومات عن مصادر الإمداد المائي للمدينة، مما أتاح للروس أن يهزموا حاكم المدينة العثماني.

وصرح رئيس أساقفة أرميني اسمه أرجوتنسكي دولجوروكوف علانية في تسعينيّات القرن الثامن عشر بأمله وإيمانه أن الروس "سيحررون الأرمن من حكم المسلمين". واستمر الأرمن في إرسال رسائل إلى المسؤولين الروس يشجعونهم فيها على الاستيلاء على المناطق التي يحكمها المسلمون وإنقاذ الأرمن من اضطهاد المسلمين.

وقام الرعايا الأرمن المقيمون تحت حكم الدولة العثمانية إضافة إلى الأرمن الرعايا تحت حكم الروس، بالقتال إلى جانب الروس ضد الإمبراطورية العثمانية في حروب أعوام (١٨٢٧-١٨٢٩) وحرب القِرَم.

كما قاموا بالتجسس لحساب الروس وإرشاد جيوشهم في الأناضول للمواقع الحساسة في الجيوش العثمانية، وحوّل رئيس دير للرهبان أحد الأديرة الأرمينية على الحدود العثمانية الفارسية إلى مستودع أسلحة، وجعله نقطة تسلّل لثوريين أرمن يعملون ضد الإمبراطورية العثمانية، وعندما استولى الروس على مدينة قارص العثمانية، لاحظ المراسل تشارلز وليامز أن الأرمن ساعدوا أصدقاءهم الروس في قتل الجرحى من الأسرى العثمانيين!

قائد أرميني في أرضروم

وحينما استولى الروس على مدينة أرضروم العثمانية، عيّنوا أرمنيًّا في منصب قائد الشرطة ، وقام الأرمن بالإفادة من وجود الروس فعاملوا المسلمين بقسوة وأهانوهم، كما يقول السفير ليرد، وعندما عادت المدينة للمسلمين استطاع العثمانيون أن يحافظوا على النظام، وقاموا بحماية الأرمن من ثأر المواطنين المسلمين.

كانت الأحزاب الأرمينية الثورية – كما يقول جستن مكارثي – مستعدة للتضحية بأرواح أرمينية أو مسلمة في سبيل تحقيق أهدافها، كان المخطط العام لخطتهم محاكاة الانتفاضة البلغارية الناجحة عام ١٨٧٦م، وتحريض أرمن محليين على مهاجمة مسلمين، أو القيام بذلك بأنفسهم، محرضين بذلك على قتل الأرمن، مما سيؤدي إلى تدخل أوربي لمصلحة قيام دولة أرمينية.

لقد شاعت تمردات الأرمن ضد الحكومة العثمانية في كل أنحاء الشرق بعد عام ١٨٩٠، وشكّل الأرمن عصابات لقتال المسلمين، وسقط كثير من القتلى من الجانبين، ووصل الأمر لمحاولة الأرمن اغتيال السلطان العثماني عام ١٩٠٥م.

وفي ١٤ أبريل عام ١٩٠٩م بدأت الهجمات الأرمينية على المسلمين في منطقة أطنة ، متأثرة برجل الدين المسيحي الأسقف موستش، الذي بشّر بأمة أرمينية مستقلة، ومات قرابة عشرين ألفًا من الطرفين، يقول جستن مكارثي: "كانت أحداث عام ١٨٩٠ وعام ١٩٠٩ مهمة في تهيئة المناخ النفسي لعام ١٩١٥" .

وفي عام ١٩١٤ اندلعت الحرب العالمية الأولى وأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية، كان الأرمن قبلها ينظمون أنفسهم في فرق

لحرب العصابات ضد العثمانيين، فقاموا بتكديس مخازن احتياطية من الأسلحة بتمويل من روسيا، وحين أُعلنت الحرب دخل أرمن الأناضول - الذين رحلوا إلى روسيا في السابق - إلى الإمبراطورية العثمانية من جديد، وقادوا فرق رجال العصابات، وانضم إلى العصابات عدد كبير من الأرمن الذين فروا من الجيش العثماني، والذين شكّلوا عصابات قطاع طرق ولصوصية في الأناضول، ثم انضموا إلى القوات الروسية والأرمنية، قدّرت الحكومة العثمانية أن نحو ٣٠٠٠٠ رجل مسلح من إقليم سيواس وحده انضموا إلى القوات الأرمينية، وهو ما يدل كما يقول مكارثي- على ثورة كبيرة يُخطط لها منذ زمن بعيد، بدأ الأرمن الهجوم على الوحدات العسكرية العثمانية، وعربات توزيع البريد، ومواقع الدرَك (الشرطة)، ووحدات التجنيد، في مناطق كثيرة. وقطعت خطوط البرق في شرقي الأناضول، وجرت مواجهات عسكرية بين المتمردين الأرمن والقوات العثمانية، وقام الأرمن بمهاجمة قرى مسلمة وقتلوا العديد من المسلمين، ونُفذت خطط الأرمن في الاستيلاء على مدن شرقية حال اندلاع الحرب، ويشير جستن مكارثي إلى أنه يجب إدراك أن اعتداءات الأرمن جرت قبل إصدار أي أوامر بترحيل الأرمن بمدة طويلة! وأن ثورات الأرمن وهجماتهم على القوات العثمانية في وان وزيتون وموش والرشادية وكواش ومدن وبلدات أخرى، تمت قبل صدور أوامر العثمانيين بالترحيل.

وحشية الأرمن

وبداية من عام ١٩١٥م ازدادت وحشية وجرائم الأرمن بحق المسلمين؛ سعيًا منهم للاستقلال عن الدولة العثمانية، مستغلين انشغال

العثمانيين بالحرب العالمية الأولى، وكانت أعمال الاغتصاب الوحشية – كما يقول مكارثي – جلية في كل مكان، كما كانت أعمال التعذيب قبل القتل شائعة... ويبدو أن هجمات الأرمن على مسلمي الشرق في أثناء الحرب العالمية الأولى تركزت على القتل بدلًا من الدفع إلى الفرار!.

وقد أتى مكارثي بأدلة موثقة كثيرة في كتابه الرائع الفذ على مذابح الأرمن ووحشيتهم وجرائمهم بحق المسلمين العثمانيين، وهذا مثال واحد يخص إقليمًا واحدًا فقط، وهو إقليم وان (Van)..

يقول مكارثي: في ٢٠ نيسان (عام ١٩١٥) بدأ الأرمن في وان بإطلاق النار على مخافر الشرطة ومساكن المسلمين، مع تقدّم الأرمن وتغلبهم على قوات الأمن العثمانية، أحرقوا الحي المسلم وقتلوا المسلمين الذين وقعوا في أيديهم، كان من ضمن الذين قُتلوا جنود عثمانيون جرحى أو مرضى جاءوا إلى وان للنقاهة، ودُمرت قُرى زفيه، وملا قسيم، وشيخ قرة، وشيخ عينة، وزورياد باكس، وخضر، وعمق، وآيانس، وورندز، وحرويل، ودير، وزيوانا، وقرقر، وقرى كثيرة لم تُحدد بالاسم، دُمر كل شيء إسلامي في وان باستثناء ثلاثة مبانٍ أثرية، جرى إحراق أو هدم جميع المساجد، دُمر الحي المسلم كاملًا، حين انتهت مهمة الأرمن والمعركة بين العثمانيين والأرمن، بدت (وان) أقرب إلى خرائب قديمة منها إلى مدينة. وهاجمت العصابات الأرمينية على الطرق كثيرًا من أولئك الذين استطاعوا الفرار، وكانوا يقتلون جميع المسلمين الذين يمرون قريبًا منهم، وقام الأرمن بسرقة ما يحمله المسلمون الفارون، واغتصبوا كثيرًا من النساء.

عزل العصابات

كان الرد العثماني – كما يقول المؤرخ الأمريكي جستن مكارثي – على الثورة الأرمينية طبيعيًا ومشابهًا لرد حكومات القرن العشرين الأخرى التي تواجهها حرب العصابات، وذلك بعزل العصابات عن الدعم المحلي والتخلص من الحاضنة المحلية، وقرر العثمانيون ترحيل السكان الأرمن من المناطق العسكرية الفعلية أو المحتملة، وإعادة توطينهم سلميًّا، وقد أدّى القرار إلى تضاؤل هجمات الثوار الأرمن.

ويقول مكارثي إن قرار إجبار الأرمن على الرحيل صحيح باللغة العسكرية المحضة، لكنه سبَّب متاعب ووفيات كبيرة بينهم، وهذا يبعث على الأسى، ومع ذلك أدّى القرار إلى النتيجة المرجوة: تضاءلت هجمات الثوريين الأرمن! وتزايدت متاعبهم ووفياتهم بسبب عنف هؤلاء الثوار ومناصريهم الروس.

عهد الاتحاديين

ويتجاهل خصوم الإسلام أن المتاعب المفترضة التي جرت للأرمن عند الترحيل جرت في عهد الاتحاديين العلمانيين، بعد أن انقلبوا على الخليفة عبدالحميد الثاني عام ١٩٠٨م، وجعلوا الخلافة مجرد سلطة روحية، ما لبثوا أن ألغوها تمامًا وعزلوا الخليفة العثماني، وطردوا أفراد الأسرة العثمانية خارج البلاد!

إبّان الثورة البلشفية في روسيا عام ١٩١٧ تفكّك الجيش الروسي وترك الميدان للعصابات الأرمينية التي تقهقرت أمام الجيش العثماني، فخرّبوا البلاد التي كانوا يحتلونها وقتلوا مسلميها وارتكبوا فيها الفظائع

، وقال تقرير القائد العثماني "وهيب باشا" إن الأرمن قتلوا كثيرًا من المسلمين وألقوا بجثث بعضهم في الآبار، وأحرقوا جثثًا أخرى، ومثّلوا ببعض الجثث، وشقّوا بطون المسلمين في المسالخ، ومزقوا أكبادهم ورئاهم، وعُلقت النساء من شعورهن بعد أن كن عرضة لجميع الأفعال الشيطانية، وغير ذلك.

وينتهي جستن مكارثي إلى أن: "هجمات الأرمن على المسلمين لم تؤخذ في الحسبان إلا ما ندر، هجمات المسلمين على الأرمن هي التي يهتمون بها فحسب، كان من السهل على المعلقين أن يصوروا المسلمين متوحشين شعروا بين فينة وأخرى بالحاجة إلى قتل المسيحيين!

التشبث بالماضي

ويبدو أن الروائية أليف شفق، أخذت أخيرًا نهجًا مغايرًا لما كانت عليه شخصيات روايتها " لقيطة إسطنبول"، حيث ترى أن تشبث الأرمن بالماضي تشبثًا مستميتًا عقبة كأداء أمام تطور بلادهم؛ لأن مثل هذا التشبث الأعمى – كما تسميه – يحول دون رؤية الواقع الراهن بما فيه من إيجابيات ومتغيرات، ولهذا تدعو كلًا من الأتراك والأرمن إلى نسيان الماضي الموغل في القدم والعادات من أجل بناء عالم جديد تسوده المحبة وروح التفاني وقبول الآخر.. (انظر مقدمة محمد درويش، قواعد العشق الأربعون، ص٩).

دراسة أخرى منصفة

وقد أعلن الكاتب الفرنسي إيف بينارد أخيرًا، رفضه لادعاءات الأرمن حول أحداث عام ١٩١٥، مشيرًا أن دولًا مثل فرنسا وبريطانيا

وروسيا ترفض المطالب المتعلقة بفتح أرشيفاتها؛ لأنها تخشى من حقيقة عدم ارتكاب تركيا لأي إبادة بحق الأرمن.

وأضاف الكاتب في حديثه لمراسل الأناضول عن كتابه الجديد المعنون بـ "نظرة جديدة على وجهات النظر التركية الأرمينية"، أن الأرمن لم يكونوا "القط الوديع"، خلال أحداث ١٩١٥، مشيرًا أنهم ارتكبوا الفظائع بحق المسلمين ما بين سنوات ١٩١٤-١٩١٥.

وأضاف: "الثابت بالدليل القاطع هو أن الأتراك كانوا ضحايا المذابح التي ارتكبها الأرمن في الأناضول، تركيا لم ترتكب إبادة جماعية بحق الأرمن".

ولفت بينارد إلى وجود حملة تضليل يتعرض لها الشعب الفرنسي حول أحداث عام ١٩١٥، مشيرًا إلى عدم وجود أي وثائق تشير إلى ارتكاب الأتراك مجازر ضد الأرمن.

وطالب بينارد الحكومة الأرمينية بفتح دار المحفوظات (الأرشيف) الخاص بها إذا كانت جادة بمزاعمها، وقال: "الحكومة الأرمينية لا تقول الحقيقة لذلك هي لا تريد فتح المحفوظات."

وهذا ما تأكّد رسميًا فيما بعد، فقد شهد عام ٢٠٠٩ أهم تطور من أجل تطبيع العلاقات بين تركيا والأرمن، حيث وقّع الجانبان اتفاقين من أجل إعادة تأسيس العلاقات الدبلوماسية، وتطوير العلاقات الثنائية، في تشرين الأول/ أكتوبر، بمدينة زيورخ السويسرية. ويقضي الاتفاقان بإجراء دراسة علمية محايدة للمراجع التاريخية والأرشيفات، من أجل بناء الثقة المتبادلة وحلّ المشاكل الراهنة، فضلًا عن الاعتراف المتبادل بحدود البلدين، وفتح الحدود المشتركة، وأرسلت الحكومة التركية،

الاتفاقين إلى البرلمان مباشرة من أجل المصادقة عليهما، فيما أرسلت الحكومة الأرمينية، نصّيهما إلى المحكمة الدستورية من أجل دراستهما، وحكمت المحكمة أنهما لا يتماشيان مع نص الدستور وروحه.

وأعلنت أرمينيا تجميد عملية المصادقة على الاتفاقين، في كانون الثاني/ يناير عام ٢٠١٠، وسحبتهما من أجندة البرلمان، في شباط/ فبراير ٢٠١٥.(راجع: صحيفة رأي اليوم الإلكترونية، ١٦/ ١٢/ ٢٠١٧) والرابط هو: http: / /www.raialyoum.com /?p=٧٩٦٤١١

ولا ريب أن الأرمن يريدون أن يتخذوا من هذه المسألة مسمار جحا؛ ليرتبوا عليها نتائج لا يعلم إلا الله ماهي!

* * *

ثالثًا- الصوفية والإلحاح عليها

يبدو اهتمام أليف شفق بالصوفية سابقًا على ما أشارت إليه في رواية "لقيطة من إسطنبول حيث بدا الاهتمام بالصوفية السلبية محدودًا ولكن مؤثرًا، في ثنايا السرد والحوار، فقد ترافق اهتمامها المكثف بالنسوية مع الصوفية حين حازت رسالة الدكتوراه عن (التصوف الإسلامي وفهم الزمان فهمًا دائريًا)، ثم نالت جائزة جلال الدين الرومي عام ١٩٩٨م عن أولى رواياتها (الصوفي)، بوصفها أفضل عمل عن الأدب الصوفي في تركيا، وكانت روايتها الثانية (مرايا المدينة) عن التصوف الإسلامي واليهودي في القرن السابع عشر.

لقد بدأت دراسة الصوفية في سن العشرين، وتأثرت بها تأثرًا كبيرًا، لا على صعيد السلوك السطحي والخارجي، بل على صعيد الفكر والرؤية

وقالت عنها: "كلما قرأ المرء في موضوع الصوفية، تعيّن عليه أن يصغي أكثر فأكثر للآخر، لقد أثّرت فيّ الصوفية تأثيرًا روحيًا وعاطفيًا، وعندما كنت أصغر سنًا لم يكن يهمني أمر العالم ولا فهمه، كل ما فكرت يومئذ هو تغييره بمساعدة ثلاثة عوامل هي : النزعة النسوية، والفكرة العدمية، والحركة البيئية، لكن كلما تعمّقت في قراءة الصوفية وجدتني جاهلة أكثر من ذي قبل، وهذا ما ترمي إليه الصوفية تمامًا: إنها تجعلك تمحو ما تعرفه وما أنت متأكد منه، لتبدأ التفكير، في هذه المرة لا يستند إلى العقل بل إلى القلب.(مقدمة المترجم: محمد درويش، قواعد العشق الأربعون، دار الآداب، بيروت ، ٢٠١٦، ص٧-٨).

ولكن الكاتبة طوّرت الفكرة وعمقتها في روايتها "قواعد العشق الأربعون"، التي لقيت انتشارًا واسعًا، لدرجة تحويلها إلى مسرحية تكتظ بالمتفرجين كل ليلة على مسارح القاهرة في صيف ٢٠١٧، والرواية نتيجة تجربة الكاتبة بحثًا عن الحب والعشق الإلهي وتأثرها بالمذهب الصوفيّ الحلولي، من خلال قصة "شمس التبريزي" و "جلال الدين الرومي".

الكفر الحلو!

وتدور أحداث الرواية في خطين زمنيين متوازيين، الأول منهما يمثل الحياة التي تمر بها "إيلا" اليهودية، الزوجة التي تعاني من الرتابة في حياتها مع زوجها وأولادها في عصرنا الراهن، بينما يمثل الخط الآخر الأحداث التي تلت لقاء "جلال الدين الرومي" بصديقه الدرويش الرحّالة "شمس التبريزي" في القرن الثالث عشر.

تتحول "إيلا"؛ التي تعاني من الكآبة، لتصبح عاشقة مجنونة بصاحب كتاب "الكفر الحلو"؛ "زاهارا"، وهو الكتاب الذي يتحدث عن "شمس

التبريزي" و "جلال الرومي" وقواعد العشق الأربعون، وتكتشف "إيلا" مع "زاهارا" المسيحي الذي اعتنق مذهب "شمس" الصوفي بأن "التبريزي" لم يمت منذ ٨٠٠ سنة، إنما هو شخصية جدلية تتكرر في كل العصور.

فيما يكون معظم التركيز على قصة "شمس وجلال"، وتبدأ الرواية بكلمة لـ "شمس التبريزي":

"عندما كنت طفلًا رأيت الله، رأيت الملائكة، رأيت أسرار العالمين العلوي والسفلي، ظننت أن جميع الرجال رأوا ما رأيته، لكني سرعان ما أدركت أنهم لم يروا". لتبدأ بعدها قصة رحلته الممتدة من "سمرقند"، وصولًا إلى "قونية" التركية، التي يلتقي فيها عالم الدين "جلال الدين الرومي"، ويسطع نور "شمس" على حياة "الرومي" ، وينقله بعدها من عالم الظاهر إلى عالم الباطن، في وقت تفشت فيه النزاعات الدينية والطائفية في أرجاء الأرض، فيتحول "الرومي" بعد لقائه بشمس؛ من عالم دين عادي إلى شاعر يجيش بالعاطفة وداعية للحب، فيبتدع الرقص المولوي، ويتحرر من جميع القيود التي يفرضها الدين في سبيل الوصول إلى نشوة الروح واللحاق بالروح الإلهية، من خلال الإيمان بالحلول ووحدة الوجود، وهو ما يتعارض مع صحيح الدين الإسلامي.

نبذ الجهاد

وتتبلور في الرواية الدعوة إلى روحية شاملة تضم البشر جميعًا من خلال وحدة الأديان، والأخطر هو الدعوة إلى الجهاد الداخلي (جهاد النفس)، ونبذ الجهاد دفاعًا عن الأوطان المستباحة، والعقيدة التي توجه إليها السهام، مع تصوير هذا الجهاد الخارجي بأنه عدوانية في تكوين العقيدة الإسلامية (الحرب على الكفار)!

وتصور الرواية أنصار الإسلام غير الصوفي في صورة منفّرة تجمع إلى التعصب، التشدد والتشاؤم والتطرف والسطحية، مثل ذلك الشاب الذي سمّته "المتعصب"، "رجل متشدد يعيّن 'بيبرس' ابن أخيه في الحراسة بالواسطة، يرى الدنيا بنظرة تشاؤمية، ويرى ما مر من كوارث مثل الهجوم المغولي هو عقاب من الله على هذه البلاد."

وبينما يحرم الإسلام الخمر يستطيع الصوفي شرب الخمر، والرقص كتعبير عن الزهد، بحثًا عن الانسجام الروحي والعشق الإلهي، فالنية لدى الصوفي هي الأهم في العمل لا في ظاهره، تقول الرواية في قاعدة من قواعد العشق: "عندما يدخل عاشق حقيقي لله إلى حانة، فإنها تصبح غرفة صلاته، لكن عندما يدخل شارب الخمر إلى الغرفة نفسها، فإنها تصبح خمارته، ففي كل شيء نفعله قلوبنا هي المهمة، لا مظاهرنا الخارجية." وهي قاعدة مجازية يثير تأويلها كثيرًا من الجدل!

تقول القاعدة الأربعون من قواعد العشق: "لا قيمة للحياة من دون عشق، لا تسأل نفسك ما نوع العشق الذي تريده، روحي أم مادي، إلهي أم دنيوي، غربي أم شرقي؟... فالانقسامات لا تؤدي إلا إلى مزيد من الانقسامات، ليس للعشق تسميات ولا علامات ولا تعاريف، إنه كما هو نقي وبسيط، العشق ماء الحياة، والعشيق هو روح من نار! يصبح الكون مختلفًا عندما تعشق النار الماء".

وهكذا تبدو الصوفية الحلولية هروبًا ذاتيًا من الواقع، وهو ما جعل حياة الزوجة اليهودية إيلا تنقلب رأسًا على عقب، فقد وجدت مذهبًا يدفع إلى التحلل من الالتزامات الدنيوية والإيمانية.

الإلحاح على الصوفية

وبعيدًا عن أليف شفق وروايتها، فإن العالم يشهد إلحاحًا على فكرة الصوفية التي تلغي الأديان أو توحدها سيان= هناك قسم في المكتبات الأميركية لجلال الدين الرومي= وكأن المقصود التخلص من الإسلام وحده، وإلزام أهله الاستسلام أمام قوى الشر والظلم والبغي، بالتخلي عن الجهاد، والدفاع عما يعتقدون، والأغرب أن يعد بعض الباحثين الغربيين الصوفية الحلولية، الصورة الحقيقية للإسلام.

ويؤيد هذا ما يراه بعض الكتّاب بما فحواه: أن الغرب على المستوى الرسمي يُريدنا اليوم أن نكون صوفيين، دعاة سلام في علاقتنا معه، وأهل حرب في علاقتنا الداخلية، والدليل على ذلك أنه يذكي الخلافات ويدعمها بين المذاهب الإسلامية، على غرار ما هو حادث بين الشَّيعة والسنة في العراق وسوريا مثلًا، وهذا يعني أن دعم الصوفيّة من طرف بعض الحكومات، لا يقف عند حدود أهداف هذه الأخيرة، ولا عند رغبة النّخب المثقفة في الحضور من خلال الماضي لعجز في الإبداع أو الهروب من الواقع، أو الرغبة الجامحة لدى شعوبنا للخروج من الأزمات والأمراض النفسية بسلوك طريق الروحانيَّات عبر الصوفية، بل يعني أن تكون بلا دين!

إن عواصف الهجوم على اليقينيَّات، تعدّ لدى قطاع عريض من شعوبنا حملة معادية للإيمان، وإن بدت في ثوب دعوات للتجديد، ولذا تتم مواجهة تلك العواصف باستدعاء الصوفية، واستحضارها من كهوف التاريخ إلى ناطحات السحاب في الوقت الحاضر.

الغرب يريد الصوفيّة ليس من أجل تعميم صفاء الوجدان وتعميق المحبة، وإنما لتكون دافعًا للاستكانة والخمود، وبها يُعيد ترسيخ أطروحاته الاستعمارية السابقة.

(راجع مثلًا مقالة خالد بن عمر قفة، الأهرام،١٣/ ١١/ ٢٠١٧م).

وقد عقد المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة أخيرًا (٩/ ٤/ ٢٠١٨م)، ندوة حول ما سمّاه "الصوفية البديل"، شارك فيها عدد من المهتمين بالشأن الصوفي، مما يشير إلى أن المسألة ليست بعيدة عن إقصاء الإسلام الحركي الشامل، وإحلال بديل يتناغم مع رغبات الطامعين من القوى الكبرى، وأتباعه من المستبدين المحليين، وأنصار الثقافة الغربية الوثنية!

دعم رسمي

وللأسف تشارك بعض الدول العربية في نشر التصوف السلبي، وترصد لذلك ميزانيات ضخمة، وتبلغ ميزانية أحد دعاة الصوفية هم مليون دولار شهريًا، وتترك المجال للصوفية السلبية مفتوحًا دون قيود أو مساءلة، كما تفعل بالنسبة لغيرهم في الحركات الإسلامية السلمية، ولا تكتفي هذه الدول بتشجيع الصوفية السلبية وتوظيفها في مجالات سياسية معينة بل توفر لهم الدعاية المجانية عبر فضائيات وقنوات أرضية، وصحف متنوعة، ويرتبط الترويج للصوفية بمخططات كبرى لاقتلاع الفكر الإسلامي السني. (انظر: عربي٢١، ٢٥/ ٨/ ٢٠١٧م)

وإذا كان الترويج للصوفية السلبية بديلًا للإسلام الحركي الفعّال جاء على مراحل من خلال الأدب والرواية تحديدًا= تتزايد الأعمال الروائية التي تتناول الصوفية من خلال جلال الدين الرومي باستمرار، وبعضها حصل على جوائز البوكر، مثل رواية موت صغير، لمحمد حسن علوان، عن جلال الدين

الرومي، وهناك رواية "حارس العشق الإلهى.. التاريخ السرى لمولانا جلال الدين الرومي" للكاتب أدهم العبودي، وهذا الكاتب له العديد من الروايات التي تدور في الفلك الصوفي بالمفهوم السلبي= وهناك دعوات مباشرة انطلقت من أجل إحلال الصوفية الحلولية، بديلًا للتعليم الديني الروتيني كما يسمّونه، ومواجهة الصحوة الإسلامية وتجلياتها الاجتماعية والسياسية، ومن ذلك بعض الكتب والأبحاث والدراسات التي ترجمت على الفور إلى العربية ومنها كتاب " المستقبل للإسلام الروحاني"، لإريك يونس جوفروا (أستاذ في معهد الدراسات العربية والإسلامية في جامعة ستراسبورغ ـ فرنسا) وترجمه هاشم صالح، ونشره المركز القومي للترجمة بالقاهرة منذ فترة قريبة.

اهتمام غير عادي

لقد كان هناك اهتمام غير عادي بالكاتب الذي أعلن إسلامه وهو في التاسعة والعشرين من عمره، فقد تمّت دعوته إلى القاهرة، والاحتفاء به في المركز القومي للترجمة، وأجرت معه الأهرام حوارًا صحفيًا يوم ٢٦/ ١١/ ٢٠١٧م، وعرضت كتابه صحف عديدة فور صدور الترجمة، ومنها عرض بعنوان: "بعدما فقدت براءتها وتحولت إلى قوة اجتماعية: هل ستكون الصوفية قدرنا؟" للكاتب اليساري السوري محمد تركي الربيعو- نشرتها القدس العربي (لندن، ٢٣/ ٩/ ٢٠١٧م)، ويتحدث فيها عما يسمّى "السوق الدينية" التي حظيت في العقود القليلة الماضية باهتمام كبير من قبل الباحثين في سوسيولوجيا الدين، و«التبشير» بأشكال جديدة من "البرجزة" الإسلامية أو «إسلام البزنس»، على حد تعبير صادق جلال العظم، وهو الإسلام الأكثر عقلانية وانفتاحًا مقارنة بالأشكال «العتيقة» من حركات الإسلام الإحيائي.

سوق دينية

وفي سياق استعراضه لكتاب إريك جوفروا «المستقبل للإسلام الروحاني»، يوافق أريك على ما يقال عن ولادة سوق دينية جديدة، أو بالأحرى سوق «لترقيع العقائد» على حد تعبيره، عبر الأخذ من كل دين ما يعجبنا أو يناسبنا، وتشكيل توليفة من كل الأديان، وهو ما يعني تذرية الإيمان وتأكيد البحث الفردي عنه، مع ذلك يرى جوفروا أن الميل إلى السلفية هو ميل مؤقت (شهقة المحتضر)، وأن الحياة الجديدة أخذت تفرض علينا العودة إلى النزعة الروحية (أو الصوفية التي يرى أنها كلمة باتت مبتذلة في الوقت الراهن من كثرة الاستخدام) كي تقاوم الميل الطبيعي للإنسان نحو المبالغة الأنانية والنزعة المادية والعقلانية الضيقة، ولذلك حسب جوفروا فإن أشكالًا جديدة من الروحانية معروفة وغير معروفة سوف تظهر قريبًا، وفي هذا الشأن، يشير إلى الجاذبية التي أخذت الصوفية تمارسها على الغرب، خاصة في تجلياتها الفنية، رغم أنها لا تنجو من المنطق التجاري والاستهلاكي.

وفي ظل هذا الواقع الجديد، فإن الفكر الصوفي قادر على مواجهة هذا الواقع الجديد، فشعار الصوفي في الحياة هو أن يكون ابن اللحظة أو ابن عصره، كما أنه يعتبر نفسه صدى للإيحاء القرآني الذي يقول «كل يوم هو في شأن»؛ لأن اللحظة عند الصوفيين تتطابق مع الوضع الروحي الذي يجدون أنفسهم فيه أو بالأحرى الذي يضعهم الله فيه؛ وبالتالي فهم لا يقيمون أي وزن للماضي أو للمستقبل – وفق ما يراه – بل يهتمون فقط بالحضور الإلهي الذي هو في لحظتنا المعيشة، من لون عصرنا وحداثتنا المعولمة، بل يتوافق مع عصر ما بعد الحداثة، بمعنى أن الحضور الإلهي

يتخذ شكل اللحظة المعيشة هنا الآن، وليس مسجونًا أو مجمدًا في لحظة ما في الماضي كما تعتقد السلفية، ويتساءل: أي مساعدة أو أي تغذية روحية يمكن أن ننتظرها من التصوف التاريخي الإسلامي الذي طالما هُوجم في صيغته الطرقية على وجه الخصوص؟

السم والترياق

في هذا السياق، يرى جوفروا أنه في العالم الإسلامي، بل حتى في الغرب، لا ينجو المشهد السياسي المعاصر مما يمكن أن يبدو وكأنه عملية «سطو» على الصوفية. فالفكرة السائدة صراحةً أو ضمنًا لدى العديد من قادة البلدان العربية بشكل خاص هي أن الصوفية يمكن أن تستخدم ترياقًا ضد سموم مختلف الحركات الأصولية المتطرفة، أو كل الأيديولوجيات التي تستخدم الدين لأغراض سياسية، من جهة أخرى نلاحظ أن بعض المثقفين في الغرب يحاولون أيضًا التلاعب بالصوفية، من أجل أن يقدّموا للجمهور إسلامًا مخفّفًا أو معتدلًا يمكن التعامل معه، مع ذلك يرى أن الإشكالية مع التصوّف ومدارسه لا تكمن في هذا الجانب بالذات، بدون أن ننفي تأثيراته الجانبية وبدون القبول كذلك بالاتهامات التي تُكال للصوفيين بوصفهم عملاء للسلطة، بل إن الإشكالية الأساسية التي قد تعيق أي دور جديد للتصوف تكمن في مدى قدرته على التأسيس لفترة «ما بعد الزاوية أو الطريقة». فالصوفية التي كانت تمثّل في البداية طاقةً روحية، قد اضطرت لتقديم التنازلات إلى هذه الطبيعة البشرية ذاتها داخل أطر محصورة أكثر فأكثر سوسيولوجيًا ومؤسساتيًا. وهذا يعني أنها فقدت من براءتها أو طاقتها الروحية بعد أن تحولت إلى قوة اجتماعية ومؤسساتية، وقد نتج عن ذلك أن الصوفية الطرقية، سقطت

هي الأخرى أيضًا في فخ الطقوسية الشعائرية أو «الأصولية الروحانية».

في كل الأحوال يظل الإلحاح على الصوفية بالنسبة للمسلمين في هذا الزمان أمرًا مثيرًا للريب والشكوك، وسعيًا لإقصاء الإسلام كما جاء به النبي – صلى الله عليه وسلم – واستغلالًا لفراغ ديني وروحي لدى شعوب الأمة وخاصة العرب المهزومين المقهورين.

* * *

لقيطة إسطنبول

رواية "لقيطة إسطنبول" يصفها ناشر الترجمة بأنها رواية قاسية وقويّة، كرّست الكاتبة أليف شفق نجمة من نجوم الرواية العالميّة.

وصف الرواية بالقسوة والقوة يشير إلى موضوعها وطريقة معالجتها، أما كون المؤلفة نجمة من نجوم الرواية العالمية، فهي كاتبة على مستوى عالٍ من الحرفية، وتملك الموهبة والخبرة التي تعمقت بعد مجموعة من الروايات التي أصدرتها من قبل، وسبقت الإشارة إليها، وهي بلا ريب أفضل من مواطنها أورهان باموق الذي نال جائزة نوبل قبل سنوات وتفتقر كتاباته إلى الرواء الذي تتمتع به روايات أليف.

هي رواية قاسية؛ لأنها تتناول أمورًا من الصعب تناولها، من خلال حياة أسرة من النساء تعيش بلا عائل من الرجال، وتقوم شخصياتها النسائية بالاعتماد على أنفسهن، والشخصية الذكورية وهي الأخ الوحيد في الأسرة، يعيش بعيدًا عنها في الولايات المتحدة، بعد أن وقع بسبب انفعال غاضب في إثم علاقة محرمة مع شقيقته ينتج عنها مخلوقة لقيطة لها سلوك خاص، وتنتقم منه إحدى شقيقاته حين يعود

بعد عشرين عامًا لزيارة أسرته بتقديم السم في الحلوى التي قدمتها له، فيموت ويدفن في إسطنبول.

والرواية قوية من ناحية البناء الفني، وترتيب الأحـداث، وتنويع آليات السرد، وتقسيم الفصول، وتصوير الحياة في المدينة العريقة إسطنبول، وما يجري في داخل بيوتها، وفي شوارعها ومقاهيها ومؤسساتها، وعادات أهلها وتقاليدهم.

فكرة النسوية

وقد حظيت المؤلفة باهتمام عالمي ليس لتفوقها الفني، ولكن للموضوع الذي تعالجه، ومحاولة تطبيق فكرة النسوية في بلد مسلم بصورة غير مسبوقة غالبًا عبر الأدب التركي الحديث، فضلًا عن انحيازها المطلق إلى جانب الأرمن في ادعاء المجازر التي ارتكبتها الدولة العثمانية ضدهم، وهو الادعاء الذي يتبنّاه العالم الغربي.

لقيطة إسطنبول ، ترجمها : خالد الجبيلي، وأصدرتها منشورات الجمل، ط١، بغداد- بيروت، ٢٠١٢. = يلاحظ أنه كتب في الترجمة إستانبول بدلًا من إسطنبول= وتحكي قصة الفتاة اللقيطة آسيا، التي رعتها أسرة قازانجي حيث تعيش مجموعة من النساء في منزل كبير ومن بينهم زليخة والدة آسيا اللقيطة، وهي الأخت الأصغر بين أخواتها: بانو، وسيزي، وفريدة، ولها أخ وحيد يدعى مصطفى، هو الذي بقي في الأسرة التي لا يعيش لها ذكور، أرسلته أمه وأخواته إلى أميركا؛ ليعيش بعيدا عن الشؤم الذي يعشش في إسطنبول، ولا يُبقي على ذكور العائلة كما يعتقدن. وتكشف ربيبته، آرمانوش= أبوها أرميني وأمها أيضًا وتزوجها مصطفى بعد طلاقها منه= بالتعاون مع

آسيا، أسرارًا كثيرة عن العائلة وعن تاريخ تركيا الحديث من وجهة نظر السرد.

وترصد الرواية العلاقة بين الأتراك والأرمن من خلال عائلة قازانجي التركية، التي تعيش في إسطنبول، وعائلة آرمانوش الأرمينية التي تعيش في الولايات المتحدة وتربط بينهما قرابة منذ أجيال بعيدة تمتد إلى عصر الإبادة المزعوم، ولا يعرف الأحفاد عنه شيئًا، وهو العصر الذي أسلمت فيه الفتاة (شوشان) الأرمينية (جدة آرمانوش) وتزوجت رضا قازانجي، ثم هربت مع عائلتها إلى الولايات المتحدة، هربًا من المجازر التي ارتكبها الأتراك.

تعيش آسيا= لقيطة إسطنبول= حياتها وفقًا لمفهوم النسوية الغربية، متحررة من كل القيود، مثل أمها زليخة، وسط أسرة نسوية تواضعت على تقبل أي سلوك داخلها ولو كان الحمل خارج إطار الزواج أو إجراء الإجهاض، وإن كان السرد يوجّه الانتقادات وفق النظرية النسوية، ويؤلب ضد سلوكيات معينة ؛ واقعية أو تاريخية.

لا تعرف آسيا من أبوها ؟ حتى يأتي خالها مصطفي من أميركا، ويتم تسميمه وموته، فتعلم أنه هو أبوها ، وتشارك بعواطف ميتة مع أمها وخالاتها في تشييعه ودفنه.

-١-

تدور أحداث الرواية في ثلاث مدن رئيسة هي إسطنبول، وأريزونا، وسان فرانسيسكو ، إسطنبول تمثل الحضارة الشرقية أو الإسلامية، بينما المدينتان الأخريان تمثلان الحضارة الغربية، الحاضر بقوة في الرواية هو المدينة الأولى التي تنتمي إليها الكاتبة، والعائلة موضوع الرواية، ولذا تظهر بكل مشكلاتها وملامحها القديمة والجديدة، فهي المدينة المزدحمة شديدة الاكتظاظ وتكاد حركة السير فيها تصاب بالشلل، أحجار الرصيف مكسورة، أبواق السيارات يطلقها جميع السائقين على نحو مسعور، والجعجعة لا تؤدي كما تقول إحدى الشخصيات إلى انفراج حركة المرور المكتظة ولا تؤثر عليها، كما لم تؤثر على سلالة بني عثمان التي احتلت مدينة القسطنطينية(؟) ذات يوم وتشبثت بخطئها، وهي لا تؤثر كذلك على المطر.. (الرواية، ص٥).

بيت قازانجي

تشير إسطنبول على امتداد الرواية إلى تركيا – الأرض – التي شهدت الصراع المفترض بين الأرمن، والعثمانيين، حيث تبدو شخصيات الرواية مشدودة إلى الماضي، وما جرى بين الطرفين بدرجات متفاوتة، وحيث يوجه الأرمن اتهامهم إلى الطرف العثماني الذي حكم تركيا كلها.

وعلى نطاق الأماكن الضيقة يقابلنا بيت قازانجي، والمقهى، وصالون الوشم..

بيت قازانجي هو بيت العائلة الذي يضم مجموعة من النسوة فيهن الجدة الكبرى، والجدة أم السيدات الأربع ، والحفيدة ، وهو بيت من الطراز التركي القديم، وأهم ما فيه المطبخ، ومنتجاته، والقطط التي تربيها العائلة ويحمل كل منها لقب باشا، ثم غرف المعيشة والنوم، التي شهدت إحداها الحادث المهم الذي تعلّق بمولد اللقيطة آسيا.

جحر الأرنب

أما المقهى الذي يحمل اسم الأديب الشهير ميلانو كونديرا، فهو حاضر على امتداد الرواية ويقع في الجانب الأوربي من إسطنبول، وفي داخله يتجمّع عدد من الفنانين والرسامين والصحفيين والشعراء والأدباء وكتّاب السيناريو، وبنات في عمر الزهور، وهم مجموعة ضائعة ثملة، وتغشاه آسيا لتلتقي بصديقها رسام الكاريكاتير المدمن، جدران المقهى الداخلية مبطنة بلوحات وصور من الأشكال والأحجام المختلفة، ورواد المقهى يعدونه منطقة محررة يمارسون فيه حريتهم في الكلام والتفكير وتناول ما يريدون وممارسة السلوك الذي يروقهم، ويسمّيه بعضهم جحر الأرنب الذي لا يستطيعون مغادرته خوفًا من الاصطدام بثقافتنا (الثقافة القومية) على نحو مؤلم .. فهم يعدون أنفسهم مثقفين متحضرين في مقهى كونديرا وغيرهم بدو سذج، وهذه هي الفجوة.. ويرون أن الفجوة الحضارية الحقيقية تكمن بين الأتراك والأتراك أنفسهم(ص ١٠٠)، وهو موقف يختلف عن الفجوة بين الأتراك والغرب.

وهناك صالون الوشم الذي تملكه زليخة أم آسيا، وبه مجموعة من التصاميم التي يخاطب كل منها الحبيبة السابقة، والصالون وما يجري فيه دليل على تغيير الثقافة والعادات والتقاليد(ص ٢٩٤).

غرف الدردشة

وهناك مكان افتراضي يتخذ من المقهى وسيلة له، وهو غرف الدردشة على الشبكة الضوئية(النت) حيث يجتمع الأرمن ويتحاورون حول الماضي والحاضر بأسماء مستعارة، وهي تقنية فنية تكشف عن طريق الحوار أفكار الشخصيات ورؤاهم حول القضايا المختلفة، وخاصة ما يسمّي بالمجازر الأرمينية التي تنسب للعثمانيين.

وبصفة عامة تبدو إسطنبول التي شبّهها بعض شخصيات الرواية بمجموعة من السفن فوق مياه البسفور، مدينة جميلة محبوبة بغض النظر عن الحزن الذي تسببه لهم" شعرت آرمانوش بنبض المدينة لأول مرة منذ أن وصلت إلى إسطنبول، فقد عرفت فجأة لماذا؟ فكيف يقع الناس في حب إسطنبول رغم كل الحزن الذي تسببه لهم، فليس من السهل ألا تقع في حب مدينة بهذا الجمال المفجع"(الرواية، ص ٣٠٣).

-٢-

يبدو الزمان التاريخي في لقيطة ممتدًا بحكم الاسترجاع على مساحة قرن تقريبًا، وإن كانت أحداث الرواية تجري في مدى زمني محدود قد لا يتجاوز شهرًا أو شهورًا، مذ بدأت زليخة أو الرواية تحكي قصة ذهابها لإجراء عملية إجهاض لم تتم حتى وفاة شقيقها الذي عاد إلى وطنه بعد عشرين عامًا في زيارة لأهله، فعلى مدى العشرين عامًا تتكشف الشخصيات والأحداث والأفكار التي بدأت بعمل صادم (الاغتصاب) وانتهت بمأساة(القتل).

ويبدو الزمان المتحرك متناغمًا بالنسبة للشخصيات، زليخة تتذكر أول يوم جمعة من شهر تموز(يوليه) الذي ذهبت فيه لإجراء عملية الإجهاض، مقترنًا بالزحام ومتاعب الشارع التي لا تنتهي، ولعل ذلك قبل أن تعمل الحكومة التي تسمّيها الكاتبة في بعض أحاديثها الصحفية بالظلامية على حل مشكلات المدينة التاريخية وتسييل المرور، وتحويل الشوارع إلى حديقة من الزهور الجميلة، وتشييد الجسور المدهشة والأنفاق الرائعة، التي يندر أن تجدها في الدول العظمى.

ويوم الجمعة مرتبط بالأذان لأداء الصلاة، وهو يثير لديها وهي على سرير العمليات مشاعر مختلفة، (الرواية، ص٥) وربما كان ذلك من وراء رفضها لإتمام عملية الإجهاض، وإن كانت زليخة (أو الكاتبة) تنتقد مثل العلمانيين مكبرات الصوت التي تنقل الأذان، وتبحث عن نقاء الصوت،

وليس الصخب الذي يصم الآذان! ويلاحظ أن الظلاميين كما تسمّيهم الكاتبة افتتحوا معهدًا لتدريب أصوات المؤذنين والمبتهلين الجميلة على حسن الأداء وفقًا للمقامات الموسيقية، ويوم الجمعة على كل حال بالنسبة إلى زليخة يوم طويل جهنمي(ص١٤).

كما تأخذ الشهور ألوانًا معينة بالنسبة للشخصيات، فشهر آذار (مارس) مثلًا، يتسم بعدم التوازن في إسطنبول، من الناحيتين النفسية والجسدية؛ لأنه متغير(ص٢٨٧)، وخاصة يوم الثلاثاء فهو أكثر الشهور تقلبًا(ص٣٩٥).

ويأخذ الزمن إطارًا أوسع وأعمق إذا ارتبط بالماضي حيث نراه يخيف آسيا (ص٢١٦)، ويمثل بالنسبة للأرمن دورة يتجسد فيها الماضي في الحاضر،والحاضر يلد المستقبل، أما الأتراك فالزمن بالنسبة لهم خط متقطع، فيه فواصل عديدة، انتهى فيه الماضي عند نقطة محددة، وبدأ الحاضر مجددًا من نقطة الصفر، ولم يكن يوجد سوى خط فاصل في الوسط (ص ١٩٨)، وهي رؤية مشوشة متحاملة على الأتراك بلا ريب، اللهم إذا عددنا التتريك وتغيير الهوية العثمانية فاصلًا زمنيًا في تاريخ دولة عريقة ذات تراث حضاري ضخم.

والزمن وخاصة الماضي يفسر سلوك بعض الشخصيات وأفكارها، فقد يكون الماضي أي شيء، لكنه لم ينصرم أو ينقطع(ص٤١٧).

-٣-
حلوى

يقوم بناء رواية لقيطة على فصول معنونة بأسماء أنواع من الأطعمة والمكسرات والتوابل والمشروبات والفاكهة التي يقدّمها مطبخ أسرة قازانجي مضافًا إليها الماء وسيانيد البوتاسيوم، وهو ملح مسموم وضع على حلوى العاشورة التي صنعت في مطبخ الأسرة وأودت بحياة رجلها الوحيد، يمكن أن تقرأ عناوين الفصول متتابعة كالآتي :

قرفة، حمص، سكر، بندق محمص، فانيلا، فستق حلبي، قمح، حبات الصنوبر، قشور البرتقال، لوز، مشمش مجفف،... إلخ.

وتشير العناوين إلى مضمون كل فصل بطريقة ما، فالقرفة مثلًا مطلوبة للمطبخ العائلي، وتشتريها زليخة، ولكنها تنساها في غمرة الزحام والانشغال بموضوعات متعددة، وقد تشير من ناحية أخرى إلى دور ما في تهدئة الأعصاب والاسترخاء، وتسهيل صعوبات يواجهها الجسم في التنفس أو الولادة أو نحو ذلك، وقد يشير البندق المحمص إلى أسرار ينبغي فك أسرارها، وهو ما استغلته الخالة بانو في قراءة الطالع ومعرفة احتمالات المستقبل، فالدق على هيكل البندق الخارجي الصلب لتكسيره، للوصول إلى اللب الذي يؤكل يتوازي مع البحث عن الأسرار المكنونة، والقمح يشير إلى معتقدات الأمهات والجدات التركيات في أهميته لإبعاد الحسد، والأذى عن الأطفال، واللوز يتلاءم مع البيرة التي يشربها رسّام الكاريكاتير المدمن المغمور .. وهكذا.

شكر للجدات

وتستخدم الرواية تقنية غرف الدردشة على الشبكة الضوئية (النت) لتحقق التواصل بين الشخصيات في أماكن متباعدة سواء على المستوى المحلي ،أو مستوى عابر للقارات، ومن خلاله تدور حوارات الأرمن داخل أميركا في مدنها المتباعدة، وبين مدن أميركية وإسطنبول، ومركز هذه الحوارات في معظم الأحوال الفتاة الأرمينية آرمانوش ابنة روز، زوج التركي مصطفى قازانجي، وعبر الدردشة تتكشف مواقف الشخصيات المختلفة من المأساة الأرمينية التي تروّج لها شخصيات الأرمن، وتنقلها الجدات والأمهات إلى الأبناء كي لا ينسوها ، ويظلوا عائشين في الماضي كي يرتبوا تعاملهم مع أعدائهم الأتراك على أحداثه.

ومن خلال ضمير الغائب أو ما يسمّى الروائي العليم بكل شيء، تقدّم فصول الرواية أحداثها الشائكة، وتتبادل الفصول تقديم الشخصيات التركية والشخصيات الأرمينية، وتوضح أفكارهم ورؤاهم تجاه الحاضر والماضي والمستقبل.

ونلاحظ أن المؤلفة اعتمدت بصورة رئيسة على ما سمعته من نساء الأرمن والأتراك كبيرات السن، في تصميم روايتها وتقديم رؤيتها، ولم تقصر في تقديم الشكر لهن في آخر صفحات الرواية، حيث قالت:

"أنا مدينة للجدات الأرمينيات والتركيات، اللاتي يتمتعن بقدرة طبيعية لتجاوز الحدود التي يعتبرها القوميون على كلا الجانبين أمرًا بديهيًا وتحصيل حاصل" (ص ٤٢١)

تصوير الشخصيات

كما تقدّم الفصول تصويرًا للشخصيات من الخارج والداخل، وإن كانت تجنح أحيانًا إلى استطرادات تبدو غير ضرورية، وشروح مستفيضة بعيدة عن السياق الروائي إلى حد ما،(انظر مثلًا ما ورد عن كبير الطهاة الهولندي وقصته التي لا تمثل أهمية في سياق الأحداث، ص ١٣١).

وهناك اهتمام ملحوظ يتسق مع الطبيعة النسوية لسيدات الرواية بالمسائل الأنثوية مثل الأزياء والشَّعْر والوزن(الجسم) والطعام والحلويات والباليه والرقص...

بيد أن استرجاع الماضي على لسان الشخصيات يبدو عنصرا مهمًا في عناصر البناء الروائي، فمن خلاله تعرض الرواية لموضوعها الأساس، وهو اضطهاد الأرمن (المفترض) والمجازر (المدّعاة) التي حدثت لهم والترحيل الذي فرض عليهم، في حين يبقى للأتراك السرد المباشر الذي يعبّر عن الجمود والجفاف العاطفي والعدمية والعيون الشريرة والجن وقراءة الطالع والفنجان والتخلف والتمرد عليه من خلال زليخة وابنتها اللتين تمثلان الانسحاق أمام النمط الغربي في السلوك والحياة، والهوس بالأغاني الغربية وموسيقاها وأنواعها ومسلسلاتها وأفلامها ومذيعيها..

وتستعين الرواية ببعض القصص الأسطورية والفلكلورية التي تتوازى مع أحداث الرواية في محاولة لتأكيد الفكرة أو الواقعة وبيان النتيجة المترتبة عليها، فهناك مثلًا قصة عزرائيل الذي يتتبع شخصًا في أكثر من مكان حتى يصل إلى مكان بعيد ليقبضه (ص ١٥٩)، وقصة صانع السلال (ص١٦١)، وحكايات كان ياما كان، النخل داخل القشة، الحمار منادي البلدة، الجمل حلاق البلدة، كنت أكبر سنًّا من أبي...(ص ٤١٥).

التقسيم الهندسي

وهناك خصيصة تنفرد بها أليف شفق في بناء رواياتها وهو التقسيم الرياضي أو الهندسي، الذي ينتقل من مربع إلى آخر، ومن خانة إلى أخرى، فهي تضع الشخصيات مثلًا في تناظر، أو توازٍ، لتقدم جوانب الشخصية بما يعادل جوانب الشخصية الموازية، وفي رواية لقيطة تصوغ قانونًا أو سلسلة من المواد تتضمن أسلوب تعاملها مع الآخرين، وتطرح المادة في مقابل ما تتوقعه أو يجري من أحداث وتصرفات، اعتقادًا منها أن هذه المواد ستضبط مواقفها، وتبعدها عما يمكن أن يسبب لها متاعب أو انفعالات ليست في حاجة إليها.

وقد جعلت الكاتبة روايتها تنهض على قصتين متداخلتين، الأولى قصة زليخة والأتراك، والأخرى قصة آرمانوش والأرمن. الأولى تعالج فكرة النسوية التي تلح عليها أليف شفق، واعتقادها أن المجتمع المسلم في تركيا هو مجتمع ذكوري يغتصب المرأة ويسحقها، ولا مفر أمامها من أخذ حقها بيدها، والأخرى هي قصة تعود إلى الماضي الذي تعرّض فيه الأرمن وحدهم- كما تزعم الرواية- للمجازر والنفي والاضطهاد، ومن خلال تصاعد الأحداث تخدم الكاتبة أفكارها خدمة جيدة مع مجافاتها للحقائق، والواقع التاريخي والإسلامي.

لاريب أن الكاتبة أحكمت تقديم الحبكة الروائية، مما حقّق للقارئ تشويقًا لمعرفة من هو والد اللقيطة، فقد ظل يتابع الأحداث حتى جنازة مصطفى في أواخر صفحات الرواية، وهو ما يؤكد براعة الكاتبة في بناء حكاياتها بصفة عامة.

-٤-

تزخر الرواية بشخصيات عديدة على الجانبين التركي والأرميني، وغيرهما.

أجيال بعد أجيال من رجال عائلة قازانجي يلقون حتفهم وهم شباب وبشكل مفاجئ حوادث متنوعة: نوبة قلبية، التجمّد في سانت بطرس برج، صدام سيارة، غرق، رصاصة، سقوط في خندق..(الرواية، ص ٤٠).

ولذا نجد أن الأسرة تؤمن بالخرافة وصوت النحس، وأبرز الأمثلة على ذلك الجدة – ما الهيفاء – التي تؤمن بالنحس والشؤم والعين، فإذا انكسرت كأس أو تصدّعت مرآه تطلق تنهيدة تنم عن الارتياح.

الجوهرة

مصطفى الابن الوحيد في هذا الجيل، الجوهرة التي أورثها الله هذه العائلة بعد أربع بنات، وقد بذلت العائلة كثيرًا من الاحترازات خوفًا عليه (ص٤٢).

القط الفضي المبرقع النهم الذي لا يشبع أبدًا، هو الذكر الوحيد في العائلة، بعد سفر مصطفى، وهو المصاب بأعراض كآبة وتوتر اجتماعية كثيرة، وكان اسمه الباشا الثالث(ص٤٣)

مصطفى لا يؤمن بخرافات عائلة قازانجي والخرزات لدرء العين الشريرة، وقراءة الفنجان، وجلسات قراءة البخت في عائلته، فهذا جزء من عالم مظلم ومعقد يخص النساء فقط (ص٥٨).

وكان رد فعل تربيته بين النساء مضطربًا ، فقد كانت تعتريه رغبات جنسية متزايدة وهو محاط بأخوات حرّمن عليه حتى التخيل (ص٥٨). وهو يغرم بالفتيات اللاتي يرفضنه، ويتفرج على صور عارضات الأزياء في المجلات ذات الصفحات المصقولة، تهزأ به زليخة، وأمه تبدي إعجابها به، ويعيش في أميركا لينسى ماضيه، وهو مدلل ونرجسي، ولا يشعر بالأمان.

مصطفى خريج جامعة أريزونا، وعمل في شركة للمشروبات المعدنية في المنطقة، ويجد متعة في عالم الروك آند رول. ليس سيئًا. بليد بعض الشيء، ولا رغبة لديه بأي شيء في الحياة.

الغريبة

الشخصية النسوية الأولى في الجانب التركي هي زليخة، ينادونها: أهلًا بالغريبة (ص٣١)، وهي أصغر بنات أسرة قازانجي، وتخبر أخواتها بأنها ذهبت للطبيب النسائي لإجراء عملية إجهاض مما يحدث صدمة لديهن، ولكنها تخبرهن أنها لم تفعل ولم تقتل العلقة، فقد سمعت صوت الأذان الجميل، وهي توشك على إجراء العملية، وكان هناك من يهمس لها: يجب ألا تقتلي الطفل، هذا الطفل سيحكم الآخرين (ص٣٧)

والجدة كلثوم ترى أن ابنتها زليخة تجلب العار إلى العائلة دائمًا بسبب تصرفاتها "انظري إلى التنورة التي ترتدينها، إن مناشف تجفيف الصحون في المطبخ أطول من تنوراتك! إنك أم بدون زوج، مطلقة، اسمعيني جيدًا لم أر في حياتي امرأة مطلقة تضع حلقة في أنفها ، يجب أن تخجلي من نفسك يا زليخة!" (الرواية، ص ٣٠٤)

ولا ريب أن تنورات زليخة وملابسها كانت سببًا من أسباب اغتصابها الصادم، كما تشير أحداث الرواية في مشهد الاغتصاب الطويل (ص٣٦٢-٣٧٥)

ولزليخة فلسفة تنبع من النسوية التي تؤمن بها الكاتبة ملخصها:

"القاعدة الحديدية لحصافة المرأة الإسطنبولية: إذا كنت هشة مثل كأس الشاي فإما أن تجدي طريقة كي لا تواجهي ماء يغلي وتتمنين أن تتزوجي زوجًا مثاليًا أو تنكسري بأسرع ما يمكن، لذلك توقفي عن كونك امرأة شبيهة بكأس الشاي". (ص ٢٦٢).

ويبدو أن هذه القاعدة كانت من وراء رفض زليخة الزواج من صديقها الحميم آرام الأرميني بسبب ما جري لها على يد مصطفى، مع أن آرام يرى أن إسطنبول مدينته، ولا يفكر كما يفكر الأرمن الآخرون (ص٢٩٠).

ويبدو أن مشاعر زليخة تبلّدت بسبب صدمة الاغتصاب، لدرجة أن أختها بانو تقطع بصلة وتدفعها إلى أنفها لتدمع أمام المعزّيات في جنازة أخيها مصطفى، حتى لا يبدو منظرها نشازًا في سياق مشهد العزاء (ص ٤١٢).

بيد أنها قبل دفن أخيها تخبر ابنتها "اللقيطة" آسيا أن المتوفي هو أبوها!(ص ٤١٤).

ثمانية أمراض

وفريدة هي أكثر الأخوات في عائلة قازانجي اطلاعًا على العمليات الطبية، وشخّص لها الأطباء ثمانية أمراض أصيبت بها، كانت تلميذة صعبة المراس في المدرسة لم تكن تبدي اهتمامًا بأي شيء سوى حصص الجغرافية الطبيعية، ومن الموضوعات الأثيرة لديها ثقب الأوزون،

والربط بين تيارات المحيط السطحية والأنماط الجوية، وكانت تقرأ الصفحة الثالثة من الصحف الشعبية.

هناك أخت رابعة في أسرة قازانجي وهي سيزي، الأرملة والمدرِّسة، وحضورها في الرواية محدود، ولكنها تمضي على منهج العائلة بصورة ما.

النظام الإلهي

آسيا(اللقيطة) تشبه أمها زليخة التي تدعوها خالتي ، أصابعها نحيفة ذات عروق رفيعة كثيرة، أنفها معقوف لا يوجد له شبيه سوى أنف محمد الفاتح وأنف الخالة زليخة....متقلبة المزاج، قريبة من خالاتها عدا شيء واحد: ميلهن إلى عدم العقلانية (ص ٨١)، لديها هوس بالموسيقى وتتعلق بالمغني جوني كاش.

لم تعرف آسيا معنى كلمة "لقيطة" إلا بعد ما اقترب موعد عيد ميلادها التاسع عند ما أطلق عليها أحد الصبية في المدرسة كلمة "لقيطة".

وقد حاولت الانتحار وهي في الثامنة عشرة عندما سرقت علبة الدواء في البيت وابتلعت جميع الحبوب فيها.

"وللأسف لم يكن قد أنعم الله على آسيا أي قدر من الإيمان ، فقد كانت حادة جدًا وسليطة ولاذعة جدًا كي تتأكد من أن الزمن يتدفق، وكانت تتأجج في داخلها نار لا يوجد فيها أدنى قدر من الإيمان بنزاهة النظام الإلهي، وفي هذا الأمر أيضًا لم تكن تشبه أحدًا إلا أمها، فبهذا النسيج وبهذا المزاج، لا يمكنها بأي شكل من الأشكال أن تتمتع بالصبر والإيمان، وأن تنتظر الحياة اليومية حتى تحول جسدها لصالحها" (ص١٥١ وما بعدها).

ويظهر شيء من التناقض بين عدم إيمان آسيا، وبين اعتقادها بوجود الله، فهي تؤمن أنه لا يوجد شيء اسمه أب، بل لا يوجد سوى أب واحد، فعندما يكون هناك الله في الأعلى ويرعاك، فمن يحتاج إلى أب؟ ألسنا جميعًا أطفاله؟ لكن أمّي لا تؤمن بكل هذه الترهات، وأقول لك إنها ساخرة أكثر من أي امرأة عرفتها في حياتي"(ص ١٧٧).

الدراويش

الخالة بانو تقرأ البخت، وتكشف الطالع مقابل نقود، ثم أعلنت فجأة انسحابها من كل شيء مادي ودنيوي، وتفرغت كلية لخدمة الله، ويقارنها أخواتها بالدراويش في سخرية وتهكم ولكنها تمضي قدمًا في الزهد والتقشف والعزلة والحجاب(ص٨٣).

ويبدو حجاب بانو محل استهجان من نساء العائلة، فعندما تقول أنها تغطي رأسها كما يطلب منها دينها، تقول أمها أو الجدة كلثوم: ما هذا الهراء؟ فقد نزعت النساء التركيات الحجاب منذ تسعين سنة، وأنها لن تسمح لأي من بناتها أن تخون الحقوق التي منحها القائد العظيم أتاتورك للمرأة، وتذكر الخالة شكرية أن التاريخ يتقدّم للأمام ولا يعود إلى الوراء، وتطلب من بانو خلع هذا الشيء(الحجاب) ولكن بانو لا تفعل(ص ٨٦).

المفارقة أن بانو التي تعيش مع اثنين من الجان أحدهما طيب والآخر سيئ، تقرر وضع حد لحياة أخيها مصطفى انتقامًا مما فعله بزليخة، فتقدّم له طبق العاشورة الذي يحبه بعد أن سمّمته بسيانيد البوتاسيوم، وتركت له الخيار ليمتنع أو يمد يده إليه، ولكنه يختار الموت، وتحقّق فكرة أن رجال قازانجي لا يعيشون بعد الأربعين. وتشعر بانو بعد ذلك بالذنب،

وترى أن ذلك الخيار الأفضل من أن يعيش وهو يحمل عبء الماضي .

أطرف الأمور في حياة عائلة قازانجي الحريمي هو تقديسهن للجيش التركي، ورغبتهن في التجنيد" يجب أن يدعونا نحن النساء للخدمة بالجيش!" (ص ٣٨٨).

أم شنيعة

على الجانب الأرميني تبدو روز ربة بيت فاشلة أم شنيعة، كانت متحمسة لتثبت العكس بأية وسيلة، في السوبر ماركت الذي تعدّه مكانًا خطيرًا مليئًا بالفخاخ للقانطين والمنبهرين (تقدّم الرواية وصفًا لجسد روز وتحولاته من خلال فكرة تناول الأطعمة والريجيم). وتعيش روز بمرارة مزمنة بعد فشلها في الزواج من بارصام الذي ترتبط به عقليًا ونفسيًا مع الانفصال الجسدي، فهي تحبه وهو يحبها (ص ٥١) لولا تدخل عائلة زوجها في حياتهما وإرغامه على طلاقها، وتلتقي بمصطفى في السوبر ماركت وتتزوجه وتبدأ رحلة أخرى في العلاقة بين الأتراك والأرمن.

آرمانوش ابنة بارصام وروز، تتربّى في بيت مصطفي التركي ، تهتم بالكتب والقراءة، وهي جميلة جدًا، وفاشلة في الحب، وكانت جاذبيتها وعقلها يثيران الخوف في نفوس الشباب، وعائلتها لها آراء متضاربة في طبيعة الشخص الذي تختاره زوجًا لها، وتتنقل بين سان فرانسيسكو حيث يعيش أبوها، وأريزونا حيث تعيش أمها مع زوجها، تتحاشى الخوض في الحديث عن زوج أمها التركي، وتقاوم عائلتها حبها للكتب وتدعوها للاهتمام بنفسها وجمالها، وتعلل عائلتها مقاومة القراءة التي تحبها آرمانوش بأن الكتّاب والشعراء والفنانين والمثقفين هم أول من أبيدوا من ملة الأرمن في أواخر الحكم العثماني! (الرواية، ص ١١٨).

وتعيش آرمانوش صراعًا عائليًا بين أمها وعائلة أبيها يسبب ارتباكًا في حياتها، لذا نجدها لا ترد على مهاتفات أمها إلا بعد محاولات عديدة من جانب الأخيرة تستخدم فيها أرقام هواتف مختلفة، وتغادر آرمانوش أميركا؛ لتزور إسطنبول وعائلة قازانجي، وتلتقي بآسيا في منزل العائلة وتجري بين الفتاتين مناقشات عديدة ومتنوعة وممتدة حول كل شيء، وتقع آرمانوش في حب إسطنبول مع كل ما يقال عن الأتراك.

وتصور آرمانوش معاناة الأرمن وإبادتهم على يد الأتراك، وكانت تنتظر من عائلة قازانجي اعتذارًا أو اعترافًا بالذنب (انظر:ص١٩٤-١٩٦). وترد على سؤال حول أهم شيء في تاريخ الأرمن بأنه المجازر(ص ٣٥٩).

الأواني المستطرقة

هناك الجدة شوشان، وفيما بعد نفهم أنها أسلمت وتزوجت رجلًا تركيًا مسلمًا وولدت له طفلًا،ولكنها هربت مع أخيها الذي جاء من أمريكا للبحث عنها، تتداخل الزيجات والتصاهر والأحفاد بين الأرمن والأتراك، وهم لا يعلمون أنهم ينتسبون لبعضهم كالأواني المستطرقة، وهذه مصيبة الشرق الأوسط وجوهر الصراعات الاثنية فيه كما تقول الرواية، فإنها تخضع للدعاية وخطاب الكراهية أكثر مما تنبع من واقع أو عقيدة، وأحاديث الجدة والأفكار المتناقضة بين أعضاء مجموعات الشات والمدونات التاريخية للمجزرة، وهو ما دفع آرمانوش للسفر سرًا إلى إسطنبول دون أن تخبر والديها المنفصلين اللذين يعيشان في ولايتين مختلفتين، فإذا اتصل الأب للاطمئنان عليها فهي عند أمها وإذا اتصلت الأم فإنها عند أبيها بينما هي في إسطنبول مع آسيا تبحث عن الماضي وأحداثه وحقائقه ...

-٥-
قومية متعصبة

الحوار في الرواية من أهم عناصر الصياغة أو الأسلوب الروائي، ولا يتوقف عند الشخصيات في الواقع المباشر، ولكنه يمتد إلى غرف الدردشة كما سبقت الإشارة، ويحكم الحوار بصفة عامة تفكير فلسفي تحليلي، يتجاوز الرؤية المباشرة للمتحاورين في التعبير عن الواقع، أو تقديمه للقارئ، كما يعكس نوعًا من الصراع بين الأرمن والأتراك من ناحية، والعلمانية والإسلام من ناحية أخرى، وفي كل الأحوال يتاح للأرمن والعلمانيين عرض وجهة نظرهم دون أن نرى أثرًا يكافئ الرؤية العثمانية للأحداث، أو التصور الإسلامي في منظوره الصحيح، بل تقديم صورة غير صحيحة تمثلها عناصر قليلة، قومية متعصبة، وبانو التي تهتم بالدين الإسلامي من خلال الشكل فقط (الحجاب)، وتصادق الجان وتقرأ الطالع والفنجان، وتعيش مع غيبيات لا تتفق مع الغيب بالمفهوم الإسلامي الحقيقي.

البيان الشخصي عن العدمية الذي صاغته آسيا، من عدة مواد يمثل حوارًا ذاتيًا يكشف عن رؤية فلسفية تحمل كثيرًا من الدلالات التي تتناغم مع النسوية التي تتماهى معها الكاتبة، خذ مثلًا المادة الأولى:

"إذا لم تتمكني من إيجاد سبب كي تحبي الحياة التي تعيشينها، فلا تتظاهري بأنك تحبين الحياة التي تعيشينها" (ص١٤٧).

والمادة الثالثة: إذا لم يكن بوسعك أن تختاري، فكوني موجودة فقط ، كوني فطرًا أو نباتًا".(ص١٤٨)

ومواد هذا البيان الذي تصوغه آسيا قازانجي تشكّل ما يمكن تسميته مبادئ عامة تعيش عليها النساء في إطار النسوية.

ويكشف الحوار عن التفكير الداخلي للشخصيات، ورغباتهن المكنونة تجاه الآخرين، من الأصدقاء أو الخصوم في الصراع المستعر بين مشاعر الأرمن، وأحداث التاريخ مع العثمانيين كما يرونها، فضلًا عن الصراع الاجتماعي بين المطلّقين أو المأزومين، فحين تخاطب روز ابنتها آرمانوش حول علاقتها بأهل زوجها السابق الذي طلقها، وتراهم سببًا في فشل زيجتها، وحرمانها من الرجل الذي أحبته تقول لها:

"أتعرفين؟ أتمنى أن تراني جدتك الساحرة، أغازل ذلك التركي، هل تستطيعين أن تتخيلي الرعب الذي سيظهر على وجهها؟ لا يمكنني أن أفكر بكابوس أسوأ لعائلة تشيكمكجيان المتباهية المنتفخة.. المتباهية،.... يا له من شيء مثير أن تغازل عدو زوجها السابق اللدود" (ص٦٠).

الموقف الحضاري

وفي مقهى كونديرا يفسّر أحدهم وهو رسام الكاريكاتير الموقف الحضاري الذي تعيشه تركيا في الوقت الراهن بقوله:

"لقد علِقنا بين الشرق والغرب، بين الماضي والمستقبل، فمن ناحية تجد أن العلمانيين العصريين يفتخرون بالنظام الذي أقاموه، ولا تستطيع أن تنتقدهم بكلمة واحدة؛ لأن الجيش ونصف الدولة يقف إلى جانبهم، ومن الناحية الأخرى هناك التقليديون المتمسكون بالتقاليد، المفتونون (كذا!!)بالماضي العثماني، ولا يمكنك أن تنتقدهم بكلمة واحدة؛ لأن عامة الناس والنصف الآخر من الدولة يقفون إلى جانبهم. فماذا تبقّى لنا؟ "(ص ١٠٠).

وهذه قسمة طريفة، لا تعبّر عن الحقيقة بدقة، ولكنها تشير إلى حالة عامة، فرضتها عملية التغريب التي قام بها مصطفى كمال أتاتورك، فقد قام بعلمنة المجتمع وإقصاء الإسلام أو استئصاله، وفرْض واقع من الرعب على من يخالف إرادة التغريب، ولذا افترض الحوار أن عامة المواطنين الأتراك لا يوجد بينهم مثقف مثل رسام الكاريكاتير وجماعته الذين يتصورون أنهم يملكون الصواب وحده، حيث يتساءل بمرارة: فماذا يتبقى لنا؟.

وقد ينتقل الحوار إلى لغة جلد الذات حزنًا وأسفًا على عدم وجود مكان للرسام وجماعته البوهيمية الفوضوية:

"أتعرفون من نحن؟ إننا حثالة هذا البلد، عجينة نيئة تثير الشفقة، لا شيء أكثر من ذلك! فالجميع إلا نحن مهووسون بالانضمام إلى الاتحاد الأوربي، وتحقيق الأرباح، وشراء الأسهم، وتبديل سياراتهم بسيارات جديدة، وتبديل صديقاتهم.. "(ص١٠٢).

الانكشارية

ويذهب الحوار على لسان بعض الشخصيات إلى إدانة الحكم العثماني من خلال تشكيل الانكشارية العسكري، دون أن يقدّم وجهة النظر المقابلة، كأن المسألة صارت حقيقة لا تناقش، ففي الحوار الذي يدور حول الانكشارية داخل غرفة الدردشة، ويضم خمسة من الأرمن واثنين من اليونانيين، وتشارك فيه آرمانوش، نطالع رأي البارون باغداساريان في مسألة الانكشارية والحكم العثماني:

" إن الذين يعتقدون بأن الحكم العثماني كان حكمًا صالحًا لا يعرفون شيئًا عن ظاهرة الانكشارية، فقد كان الانكشاريون أطفالًا مسيحيين يتم

أسرهم وتجعلهم الدولة العثمانية يعتنقون الإسلام لتتاح لهم فرصة تسلّق السلّم الاجتماعي على حساب احتقارهم لشعبهم ونسيانهم لماضيهم، إن لظاهرة الانكشارية علاقة بجميع الأقليات اليوم كما كانت في الأمس" (الرواية، ص ١٣٨).

" .. هل ستقبلون دوركم الانكشاري؟ هل ستتخلون عن مجتمعكم لإقامة سلام مع الأتراك وتدعونهم يبيضون صفحة الماضي لكي، كما يقولون، نستطيع أن نمضي قدمًا" (ص ١٣٩).

الجنود الجدد

وواضح أن وجهة النظر الروائية تتبنّي ما يقوله الغربيون بصفة عامة عن الحكم العثماني، ولا يرون فيه إيجابية واحدة لأسباب معروفة، ولذا ليس غريبًا أن يتبنّى الأرمن الرؤية الغربية المتعصبة، وهي رؤية تنافي الحقائق التاريخية التي أشار مؤرخون عرب وأتراك وغربيون منصفون كما سبقت الإشارة.. فالانكشارية التي تأسست في عهد أورخان الثاني١٣٢٤م- على الأرجح- كانت من أعظم فرق الجيش العثماني وأقواها، وسحقت جيوش الأعداء، فقد امتاز جنودها بالشجاعة الفائقة، والصبر في القتال، والولاء التام للسلطان العثماني باعتباره إمام المسلمين، وكانوا يختارون في سن صغيرة من أبناء المسلمين الذين تربّوا تربية صوفية جهادية، أو من أولاد الذين أسروا في الحروب أو اشتروا بالمال ، ويربون في معسكرات خاصة بهم، يتعلمون اللغة والعادات والتقاليد التركية، ومبادئ الدين الإسلامي، وفي أثناء تعليمهم يقسّمون إلى ثلاث مجموعات، الأولى: تعد للعمل في القصور السلطانية، والثانية: تُعد لشغل الوظائف المدنية الكبرى في الدولة، والثالثة: تعد لتشكيل فرق المشاة في الجيش العثماني،

ويطلق على أفرادها الانكشارية، أي الجنود الجدد، وكانت هذه المجموعة هي أكبر المجموعات الثلاث وأكثرها عددًا.

حين بدأت الدولة في الضعف والانكماش بدأ نفوذ الانكشارية في الظهور، فكانوا يعزلون السلاطين ويقتلون بعضهم، مثلما فعلوا بالسلطان عثمان الثاني حيث عزلوه عن منصبه، وأقدموا على قتله سنة (١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢م) دون وازع من دين أو ضمير، وفعلوا مثل ذلك مع السلطان إبراهيم الأول، فقاموا بخنقه سنة (١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م)، وجرت محاولات عديدة لإصلاحهم، ولكنها لم تنجح حتى استطاع السلطان محمود الثاني (١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م) إلغاء الفيالق الانكشارية في اليوم التالي للقضاء عليهم (٩ من ذي القعدة ١٢٤٠هـ/ ١٥ من يونيو ١٨٨٦م) في معركة سمّيت بالخيرية، أي قبل أحداث التمرد الأرميني على الدولة العثمانية وخيانة الأرمن وتحالفهم مع اليهود في إثارة القلاقل والاضطرابات بعقدين من الزمان، ويمكن للقارئ الكريم أن يعود للمصادر التالية وهي تتضمن آراء منصفة للمؤرخين الغربيين ليرى الحقائق التي تطمسها الرواية، ولم تقدم وجهة النظر الأخرى إلا في إشارات متهافتة.

(محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية- تحقيق إحسان حقي- دار النفائس- بيروت- ١٩٨٣م. محمد فؤاد كوبريللي: قيام الدولة العثمانية- ترجمة أحمد السعيد سليمان- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- ١٩٩٣م. عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- ١٩٨٦م. يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية- منشورات مؤسسة فيصل للتمويل- إسطنبول- ١٩٨٨م).

روجي المنفية

ومن الدفاع المحدود المتهافت عن الأتراك ما ورد في غرفة الدردشة على لسان السيدة روجي المنفية (اسم مستعار):

" قولوا لي، ماذا يمكنني أنا كتركية عادية أن أفعل لأخفّف من آلامكم؟".

ويعلق السارد على هذه الإجابة بالقول:

" لم يكن تركي آخر قد طرح مثل هذا السؤال على الأرمن في مقهى كونستانتينوبوليس من قبل، فقد كان قد دخل زائران تركيان إلى المقهى مرتين منذ فترة، وكانا كليهما(كذا!) من الشبان القوميين المتعصبين، وحاولا إثبات أن الأتراك لم يرتكبوا أي خطأ بحق الأرمن، وإذا كان ثمة من سبب فالأرمن هم من ثار على النظام العثماني وقتلوا الأتراك، فكيف يوجد أرمن الآن يتحدثون عن ذلك؟ وإن وجود الكثير من الأرمن الذين يسوطون الأتراك بسياطهم دليل واضح على أن العثمانيين لم يضطهدوهم (كذا!)" (ص٣٠٨).

بالطبع لم تسع الرواية إلى تضمين وجهة النظر الأخرى التي أشرنا إليها في موضع معالجة الأحداث الأرمينية التركية؛ لأنها تتبنى سلفًا وجهة النظر الأرمينية، وما سمعته من الجدات والأمهات الأرمينيات اللاتي استمعت إليهن في أميركا.

-٦-

تجتهد الترجمة في تقديم صياغة مقبولة، ولكنها تقع في بعض الصياغات الضعيفة وأخطاء التعبير= سوف نشير إليها في سطور تالية= وفي المقابل فإن هناك ترجمات لبعض مؤلفات الكاتبة قام بها محمد درويش أكثر نضجًا ودقة وجودة.

لغة المطبخ

ولعل من أولى الظواهر الأسلوبية في صياغة الرواية حضور لغة المطبخ بصورة ملحوظة، فهناك أنواع الأطعمة والتوابل والحلويات والمشروبات، مع المقارنة بألوان من الأطعمة والأشربة في أميركا وغيرها، بل نجد اهتمامًا كبيرًا بالمطبخ لدى بعض الشخصيات في أسرة قازانجي وروز الأرمينية، وبعضهم يربط ذلك بالريجيم أو الحمية.

وهناك صياغة تحاول أن تضفي نوعًا من الشاعرية والرمزية على بعض المعاني السردية، مثل افتتاح الفصل الأول في الرواية:

" لا يجوز أن تلعني أي شيء يهطل من السماء حتى لو كان مطرًا.

فمهما كان المطر غزيرًا ومهما كانت السماء ملبدة بالغيوم أو مهما كان الجليد يكسو سطح الأرض، لا يجوز التلفظ بأي كلمات نابية لأي شيء تخبئه لنا السماء.. " (الرواية، ص٥).

وتعنى الرواية بوصف حركة الشارع وما يجري فيه، ورسم صورة عامة لمدينة إسطنبول التي تضم أطيافًا متنوعة من البشر والسلوكيات والمعروضات، أو ما يعرف بالكوزموبوليتية:

"في "شارع تركي" مرّت من أمام فندق صغير للمثليين جنسيًا، واجتازت بقالة تبيع سلعًا شرق أوسطية، ثم اجتازت سوقًا تايلانديًا صغيرًا، وشاهدت أناسًا من جميع المشارب يتسكعون على الرصيف، ثم استقلت عربة الترام إلى "التل الروسي"، أسندت جبينها إلى النافذة المكسوّة بالغبار، وراحت تفكّر "بالأنا الأخرى" في متاهة "بورخيس" وهي تراقب طبقة الضباب الرقيقة تنجرف بعيدًا في الأفق، فقد كانت "لآرمانوش" ذاتٌ أخرى، ذات تبقيها بعيدة عنها أينما ذهبت.

كانت تحب أن تعيش في هذه المدينة التي تجعل حيويتها تنبض في جسدها، فمنذ نعومة أظفارها كانت تجد المتعة في المجيء إلى هذه المدينة والإقامة مع أبيها وجدتها "شوشان"، وعلى عكس أمها لم يتزوج أبوها ثانية، مع أنها كانت تعرف أن لأبيها صديقات في الماضي لكنه لم يعرِّفها على أي واحدةٍ منهن، إما لأن علاقته بهن لم تكن جدية، أو لأنه كان يخشى إزعاجها، ويرجّح هذا السبب الثاني". (ص١١٥).

شيء من التحليل

وتهتم الرواية بالوصف الخارجي للشخصيات النسوية خاصة، وتمزجه بشيء من التحليل النفسي، كما نرى في وصف زليخة:

"قطرات المطر تتساقط من ضفائرها السوداء الملقاة على كتفيها العريضين، ومثل جميع نساء عائلة قازانجي، ولدت زليخة بشعر أسود فاحم أجعد، لكنها بخلافهن جميعهن، كانت تحب أن تبقيه هكذا، وكانت بين الحين والآخر تغمض عينيها الزرقاوين المائلتين إلى اللون الأخضر، اللتين تكونان عادة مفتوحتين على وسعيهما، المتوهجتين بشعلة من الذكاء، تغمضهما نصف إغماضة، فتصبحان مثل خطين لا مباليين

يميزان ثلاث فئات من الناس وهم: السذّج الذين لا أمل يرجى منهم، والمنطوون على أنفسهم على نحو يائس، والمفعمون بالأمل بشكل يائس، وبما أنها لا تنتمي إلى أي من هذه الفئات الثلاث ، كان يصعب فهم هذه اللامبالاة، حتى لو كانت مثل هذه الومضة الخاطفة، ففي لحظة تكون هنا، تغلف روحها طبقة من عدم الإحساس المخدر، وفي لحظة تالية، تذهب وتبقى وحدها في جسدها" .(ص٧).

وبمناسبة إدمان آرمانوش للقراءة وحب الكتب، ووقوف العائلة الأرمينية ضد الفتاة في حب القراءة نجد هذا التحليل لتأثير الكتب، وخاصة الروايات مما يدخل في استطرادات قد تشكّل عبئًا على التماسك النصي:

" ورغم أن الكتب قد تكون ضارة، لكن الروايات أكثر خطورة، فقد تضللك مسالك القصة بسهولة وتقودك إلى عالم القصص الذي يكون فيه كل شيءٍ سلسًا وخياليًا ومفتوحًا على المفاجآت مثل الليالي الظلماء في الصحراء، وقبل أن تشعر يمكنها أن تجرفك بعيدًا، وقد تجعلك تفقد الاتصال بالواقع، هذه هي الحقيقة الصارمة والبليدة التي يجب على أي أقلية ألا تحيد عنها كثيرًا؛ كي لا تفقد يقظتها وتأهبها عندما تهب الرياح وتحل أيام عصيبة، ويجب ألا تكون ساذجًا وتعتقد أن الأمور قد لا تصبح سيئة؛ لأنهم يفكرون بذلك على الدوام، فالخيال سحرٌ آسرٌ خطير للذين يرغمون على أن يكونوا واقعيين في الحياة، وقد تكون الكلمات سامة للذين كُتب عليهم أن يلوذوا بالصمت دائمًا، فإن كنت من بين الأطفال الناجين ولا تزال تريد أن تقرأ وتجتر، فعليك أن تفعل ذلك بهدوءٍ شديد، وبخوفٍ وسريّة، ويجب ألا تجعل نفسك قارئًا بارزًا، وإذا لم تكن لديك تطلعات وطموحات في الحياة فيجب على الأقل أن

تكون لديك رغبات بسيطة، وأن تكبت عواطفك وطموحك، وكأنك لا تمتلك طاقةً وقوة تكفيان لأن تجعلاك إنسانًا عاديًا ... (ص ١١٩).

أدب الأطفال

كما تناقش الرواية بعض القضايا الأدبية الصرفة، وإن حاولت ربطها بسياق تعصب الأرمن للماضي الذين يرونه داميًا، يستوجب الانتقام من العثمانيين، فهي تتناول الإجابة على سؤال :

لماذا لم يكتب أحد قصة للأطفال من قبل باللغة الأرمينية؟

وتعلّق على ذلك بتساؤلات حول الأقلية الأرمينية وعدم اعتبار أطفالهم أطفالًا، وعبث الطفولة يجب أن تكبر بأسرع ما يمكن، أو إن الأدباء في إسطنبول انقطعوا عن نقل ما تقوله الجدات في التقاليد الشفهية .

وتتوقف الرواية طويلًا عند أوهانيس ستامبوليان الأرميني الذي اهتم بالكتابة للأطفال، وهو من يكتب الآن قصة للأطفال. (ص ٢٦٧)

ويمكن لقارئ روايات أليف شفق أن يلحظ بصفة عامة تأثير استخدام الحاسوب أو الكمبيوتر على اللغة الروائية، ففضلًا عن استخدام تقنياته في البناء الروائي، نجد تأثيره على الصياغة كما نرى في هذه الصورة:

"كان يتمنى أن يتمكن من محو ذاكرته، ويزيل جميع الملفات فيها؛ ليعيد تشغيل برنامج رأسه من جديد" (ص٥٨).

القرآن والإنجيل

وتنعطف الرواية انعطافات نادرة نحو التضمين بآيات من القرآن الكريم والإنجيل، ويبدو اللجوء إلى النص القرآني أقرب

إلى المشاهد الغريبة الساخرة، أو صورة فولكلورية اجتماعية، مثيرة للفكاهة أو التعجب :

الجدة ما- الهيفاء تسجد وتنسى ماذا ستكون عليه الحركة التالية في الصلاة ؟ فتأتي زليخة بالمصحف، وتفتحه على بعض الصفحات، وتشير إلى بعض آيات سورة الجمعة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ". (٩- ١٠) لتنهي الجدة صلاتها (ص ١٥٤)، مما يشير إلى تباعد المسافة الشعورية بين الأسرة والقرآن الكريم، الأساس الذي تنبني عليه حياة المسلمين.

في الوقت نفسه حين تستدعي بعض نصوص الإنجيل المعلّقة على حائط الغرفة، تحتفي بتصوير النص الإنجيلي وتضعه في سياق يتسم بالمهابة والجمال:

" توقفت سيارة، وركنت أمام البيت، وأضاءت أنوارها الأمامية الغرفة من الداخل، فأضاءت الأحرف المكتوبة على الحائط في إطار مذهب:

آمين، الحق أقول لكم: ما تربطونه في الأرض يكون مربوطًا في السماء، وما تحلّونه في الأرض يكون محلولًا في السماء، القديس متى، ١٨-١٨ ...".(ص٧٢).

النص الإنجيلي حروفه مشكلة ومكتوبة بعناية، أما النص القرآني فيأتي في سياق يشعر بالإهمال وعدم المبالاة، وأنه يحضر في لحظة زهايمر، لا علاقة لها بالقرآن ولا معانيه "فلا تفكّري بالأمر، كما هو مكتوب هنا، صحيح؟ هيا جدتي، انتشري في الأرض وتعشّي معنا" (١٥٤).

وقضية الإسلام بالنسبة للعلمانيين عمومًا شبه محسومة، فوجوده بالنسبة لهم محسوم سلفًا ، وهو في أحسن الأحوال نوع من الفلكلور أو الآثار التاريخية الجامدة التي لا تؤثر فيما حولها بقدر ما يتفرجون عليها أحيانًا، أما بقية العقائد السماوية أو الوضعية أو الوثنية فتحظى باهتمام العلمانيين وتعاطفهم؛ لأن الثقافة الغربية التي ينتمي إليها العلمانيون تزدري الإسلام وتشيطنه، وتتعامل بشيء من التسامح مع بقية العقائد والأفكار!

تصوير وأخطاء

في سياق التصوير الجزئي في الرواية، نلحظ بعض الصور التي تعبر عن ثقافة تاريخية أو سياسية مثل تشبيه مصطفى في بيته بأريزونا "مثل ملك مخلوع يعيش في المنفى" (ص ٥٧).

أما أخطاء الترجمة اللغوية فمتعددة، منها على سبيل المثال:

" ربّت الطبيب على كتفيها، وناولها منديلًا ورقيًا، ثم قدّم لها علبة المناديل كلها"(ص٢٣)، والصواب: ربّت كتفيها؛ لأن ربّت يتعدّى بالتضعيف.

ومنها: " كان يمضي ليال كثيرة" (ص ٥٧)، والصواب ليالي كثيرة؛ لأنها مفعول به تظهر ياؤه عند النصب.

ومنها: "لو كان لدى أباها وأمها المسنين أدنى فكرة...".(ص ٧٤)، والصواب: لدى أبيها؛ لأنه مضاف إليه.

ومنها: " ومن الناحية الأخرى، هناك التقليديون المتمسكون بالتقاليد، المفتونين بالماضي العثماني..." (ص١٠٠)، والصواب: المفتونون؛ لأنها صفة مرفوعة تابعة لمرفوع.

ومنها: "كان رضا سليم قازانجي رجل أعمال فطن". (ص ٤١٦)، والصواب: فطنًا؛ لأنها صفة لرجل.

وبعد:

فإن النسوية الأدبية تنطلق من التصور العلماني الذي يعزل الإسلام أو بالأحرى الرؤية الإسلامية عن الحياة والوجود خارج جدران المسجد، ومن هذا المنطلق تطرح مظلومية المرأة في ظل الإسلام، وللأسف فإن الرواية لا تدين سلوكيات الظالمين، بقدر ما تدين الإسلام نفسه، وترى فيه قاهرًا للمرأة ومستعبِّدا لها، في الوقت الذي تنصاع فيه تمامًا لقيم الثقافة الغربية التي لم تكتف بظلم المرأة على مدى تاريخها، بل حولتها إلى سلعة في سياقات الإعلام والدعاية والتمثيل والأزياء والإنتاج والبغاء والجاسوسية والسكرتارية وتحمّل المسؤولية وحدها....

وفي محاولة تفسير التاريخ فإن التصور العلماني كان منحازًا بالضرورة للرؤية الغربية التي تبطن حقدًا تاريخيًا على الدولة العثمانية على مدى تاريخها الطويل، ولذا كانت الرؤية الغربية التي تشبعت بها النخب العلمانية في البلاد الإسلامية وما تمثله، وهي معادية لهذه الدولة على طول الخط، مع أن أصحاب الضمير الحي في الغرب أنصفوا هذه الدولة وإنجازاتها في ميادين عديدة، وإن لم يمنع ذلك من انتقاد السلبيات أو بعض نواحي القصور التي يرفضها الإسلام قبلهم.

ولا شك أن محاولة الانتقال من المجال العلماني إلى المجال الصوفي الذي يعزل المسلم في دائرة ذاتية محضة، لا يمثل نجاحًا فكريًا أو حضاريًا، إن الإلحاح على الفكر الصوفي الحلولي الذي يكرس وحدة الوجود،

وإلغاء الفوارق بين العقائد والشرائع، يسعى إلى أن يستسلم المسلمون لإرادة الغربيين الطغاة، وعدم مقاومتهم، أو ردهم عن الديار والبلاد والثروات التي أدمنوا نهبها دون اعتراض، وما محاولات تغيير الإسلام وحذف آيات الجهاد والميراث من القرآن الكريم تحت مسمّى تغيير الخطاب الديني، إلا خطوات آثمة في هذا الاتجاه الذي يتقنع بالدعوة إلى الحل الصوفي!

إن أليف شفق وآخرين من الكتّاب المرموقين، يسعون لخدمة العلمانية من خلال الفن الروائي، وهم أو كثير منهم يملك الموهبة والقدرة التعبيرية والفنية في هذا السياق، وللأسف فإن المقابل على الجانب الإسلامي ضعيف الطاقة، ومحروم من أدوات الاتصال والنشر، والموهوب في هذا الجانب لا يجد من يرعاه أو يتبنّاه أو يساعده.. صارت الساحة ملكًا لخصوم الإسلام!

* * *